جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة

prix littéraires

premios literarios

naji naaman *'s*

literary prizes

2007

حسن رحيم الخرساني

تحت

رغبات حقائبي

(آراءٌ ومَشاعِر)

دار نعمان للثقافة

حسن رحيم الخرساني

شاعرٌ عراقيّ، من مواليد عام ١٩٦٣، مُقيمٌ في أسوج منذ عام ٢٠٠١. أستاذُ اللُّغة العربيَّة في كلِّيَّة التَّربية بجامعة بغداد (العراق)، ١٩٩٤، وفي الجماهيريَّة اللِّيبيَّة. عضو اتِّحاد الأدباء العراقيِّين، ١٩٨٧، واتِّحاد الأدباء والكتَّاب العرب، ١٩٩٤، واتِّحاد الأدباء والكتَّاب السُّويديِّين ٢٠٠٥. له أكثر من كتابٍ مَنشور إلى العديد من المقالات. حائزٌ جائزةَ ناجي نعمان الأدبيَّة (جائزة الاستحقاق)، ٢٠٠٧.

حسن رحيم الخرساني، في كتابه الحاضِر، وهو الثَّاني له من ضمن سلسلة "الثَّقافة بالمَجَّان"، لا يزالُ ذاكَ العراقيَّ الباحثَ عن وطنه: فهو – لَئِن حملَ، كما ملايين العراقيِّين، حقائبَه، ورحلَ من أرض الرَّافدَين – يقودُه الحَنينُ، كما أبدًا، إلى حيث الأُمُّ، ومرتعُ الطُّفولة، ولا يتأخَّرُ في استِخدام النَّقد الأدبيِّ لتبيان آرائه في الوطن والمواطِن.

ناجي نعمان

Hassan Rahim Al-Kharassani

Iraqi author and teacher, born in 1963, living in Sweden since 2001. Various publications and cultural activities. Laureate of Naji Naaman's Literary Prize 2007 (Merit Prize).

Auteur et enseignant irakien, né en 1963, vivant en Suède depuis 2001. A son actif s'inscrivent diverses publications et activités culturelles. Lauréat du Prix Littéraire Naji Naaman 2007 (Prix du Mérite).

مسلَّةُ الشَّمس

إنطلقَ تاركًا هذيانَ أقدامهِ المُتشقِّقة وهي تلعنُ الرِّمالَ الجائعةَ وثغاءَ النّعاج التي هربتْ بهِ من ظلامٍ متعفِّنٍ لترميَ بهِ في مساءٍ مُتحرِّك ذا مزاجٍ كمزاج البحر...

كانتِ السَّاعةُ التي احتضنَتْ فرارَهُ السَّادسة عَصرًا، وهي نفسُها التي احتضنَتْ دموعَ أبيه وانهيارَ أمِّه التي اعترضَ قلبُها على قرار الرَّحيل، وهو في الثَّانيةَ عشرةَ فقط من العمر[1]، ولم تكتملْ لديهِ الرُّؤيا الثَّاقبة التي يعرفُ بها قانونَ الجاذبيَّة من حيث الالتصاقُ والتَّنافرُ المُتوارَثُ في هذا الكائن البشريّ.

ولأوَّل مرَّةٍ يتنفَّسُ الرَّملُ أقدامَ الخوف الذي تُمطرُهُ دموعُ الرَّحيل الضَّاجِّ بضياعٍ مجهولٍ وموتٍ عنيد، شَرَدَ النَّوارسَ ورملَ الدَّجلتَين وهو يركضُ، بلا هوادٍ، ليمتصَّ الهواءَ من عيون أمَّهات سومرَ اللاَّتي شيَّدنَ حضارةً بسواعد الرِّجال وعقولٍ رسمَتْ للعالم طريقًا يقودُ الجميعَ إلى الشَّمس.

فهناكَ صدى... صدًى يفرشُ جناحَيه على رأس هذه الصَّحراء، جاءتْ بهِ طفولةٌ نهلَتْ من عذب – حزب البعث – ذلك التِّنِّين الغليظ الذي انتفخَتْ أوداجُهُ من دماء المساكين وتوسُّل الأمَّهات وانكسار الآباء بعدما حشوا رؤوسَهم بجحيم هيجان الرَّئيس...[2]، صرخَتْ دجاجةٌ كرك...[3]: عاشَ القائد...! عا...اش...!! ... اش...!!!

قالَتْ نملةٌ: لا تدخلوا القبور، فالموتى مجانين... ألقموا بطونَهم – غاز الخردل – وقذفوا في رؤوسهم – أناشيد الحرب – ولأوَّل مرَّةٍ يعترفُ الرَّملُ أنَّ النَّخيلَ خسرَ اثنَي عشرَ عامًا، والكويت ربحَتْ اثنَي عشرَ عامًا من الهذيان...!!

الهذيانُ الذي طرحَ الفتى في لحظة الوصول... وأمُّهُ تُفتِّشُ عن النَّومِ أمامَ سجائر أبيه...!!

أيَّتُها الأسماكُ الأراملُ لا تهجرْنَني، أنا إلهُ الشَّمس... أحلمُ بجمالكنّ العذب، السَّابحِ في النُّور.

أيَّتُها الأسماك... لقد هجرتِ الطُّيورُ عيونَ كلكامش الذي سجنَ مَواويلَ الحزن وأكَّدَ للعالمِ أنَّهُ الطَّريقُ الوحيدُ إلى آدم... وكانتِ الواقعة... الواقعةُ التي حملَتِ الفتى صاحبَ الاثنَي عشرَ عامًا على الرَّحيل... وهو يقطفُ معهُ موتًا جديدًا... موتًا سيقذفُ بالعالمِ إلى هورشيما – تلك العذراء – الحبلى بالدَّمار...

بعدما رسموا خطوطَ أصابعهم العنكبوتيَّة وبراثنَ التِّكنولوجيا على وجهها.

أيُّها المستقيمُ العقيمُ احرثِ النُّفوسَ الأخطبوطيَّةَ ولا تَنسَ أنَّكَ الشَّاهدُ الوحيدُ الذي سيقتلُ نفسَهُ بيدَيه...!!

أيَّتُها العذراء... رَفرِفي بأطفالكِ المشوَّهين أمامَ عدالةِ التُّراب، ثمَّ ارفَعي معطفَكِ الملوَّث لينتفضَ الموتُ المُلَبَّدُ بالخوف... ولتحتَرقَ الكرةُ التي شربتْ كُلَّ هذا النَّزيف...!!

أيَّتُها العذراء... انتَظِري قليلاً... ثمَّةَ طفلةٌ في العراق هي ثوبكِ الجديد... ثوبُك الذي يُحدِّقُ والموتى نِيام... أكلتْ أظافرَهم الحربُ... الحربُ قنبلةٌ حرَّكَتْ أنفَها... وبلا تردُّد ستنسفُ التُّرابَ.

أيَّتُها العذراء... اثنا عشرَ عامًا لطائرٍ غريب... هي الواقعةُ، الواقعةُ حقًّا...!

على الهامش

(١) رمزٌ لشخصيَّة سعد راضي، تولُد عام ١٩٦٧، هربَ وهو في سنِّ الثَّانية عشرة إلى الكويت فارًّا من ظلم صدَّام حسين.

(٢) في إشارةٍ إلى صدَّام حسين عَينِه.

(٣) كرك كلمةٌ دارجةٌ تُطلَقُ على الدَّجاجة التي لا تبيض.

واقِفًا بلا ظلّ

إلى الفنَّان: حمد السُّلطان

أ-

كان المساءُ يُقلقُ السَّماءَ، وهو يحملُ ضجيجَ العالم...
وكان الغروبُ يلعبُ بغباءٍ مع الضَّوء.
ثمَّةَ عصافيرُ ترحلُ... وأخرى تنتظر... وثالثةٌ تحلمُ بالشَّمس.
وكانتْ هناكَ امرأةٌ تَستوي على كلِّ شيئ... الهواء... جسدُ الماء الأزليّ...
غياب التُّراب على سُلَّمٍ مخيف.
تحرَّكَ البحرُ قبلَ أنْ يقذفَهُ القمرُ بقراراتهِ الغليظة.
ثمَّةَ انهيارٌ يزحفُ في أصابعَ سمراء.
ثمَّةَ انكساراتٌ تلملمُ انزياحَها ببطء.
ثمَّةَ ماضٍ ينتفضُ من نومٍ بارد.
ثمَّةَ شقاءٌ يقلِّمُ عيونَ الطِّين.
شاهدتُهُ وهو في شتاءٍ عنيد، يُحاورُ فصولَ الثَّلج
بلغةٍ تُجسِّدُ... سقوطَ مردوخَ على قلب دجلة
بلغةٍ تُجسِّدُ... موتَ صرخات نيتشه
بلغةٍ تُجسِّد... مساحةَ رغباتٍ بيضاء... كلماتٍ أُجهِضَتْ...
حروفًا أُفرغَتْ من خيولها.
شاهدتُهُ واقفًا بلا ظلّ
يعزفُ أرواحَنا بنشيد الحجر... أخيرًا
تمكَّنَ من مجرَّتي
واضعًا يدَيهِ على أسرار لغتي... لتدخلَ بقاياهُ في حطامٍ مَنفِيّ[1]
حطامِنا جميعًا... أيُّها السَّادة...!!

ب –
أتنقَّلُ في مساحات يدَيكَ
اللَّتَين تقودان جسدَ الرَّحيل من زمنٍ إلى آخَر...
أتنقَّلُ في أصابعكَ لأسرقَ من رأسكَ أنفاسَ بابل.
أتنقَّلُ بين أطفالكَ الذين زرعتَهم في رئتَي
ثمَّ أمطرتَ عليهم حزنَ ترابكَ المجروح.
أتنقَّلُ فيكَ وأنتَ تقودُني لِسيزيفَ
كي أغسلَ قدمَيهِ اللَّتَينِ تحملانِ جثَّتي.
– لِمَ تقذفُ بغيابكَ جداري –
وأنتَ الطَّريقُ إلى غابتي، وأنتَ سماءُ النَّوارس؟
نعم – أيُّها السُّلطانيّ –
إنفجارُكَ هشَّمَ صمتَ البحر
وحمَّلَني الصُّعودَ لأقطفَ موتَكَ الذي تُدحرجُهُ في الوقت...
نعم – أيُّها السُّلطانيّ –
نَفيُكَ نجمتان... أو ربَّما
ذلك الملحُ المسافرُ في دموعِ مردوخ...!
نعم – أيُّها السُّلطانيّ –
نَفيُكَ في عيون الجميع
كلٌّ يرى صورتَهُ فيه...!!

على الهامش

(١) حطام مَنفي... عنوانُ معرضٍ أقامَه حمد السُّلطان في الجماهيريَّة اللِّيبيَّة.

حتَّى نَبقى عاطِلين عن التَّوهُّج

كفعلٍ يتهجَّى التَّواصل... شكَّلَتْ لنفسها التَّفاصيل في عالمٍ اقترنَ بالحلم والموت معًا...

دماءٌ تغسلُ صراخَها بالتُّراب، وعيونٌ كمقابرَ تجهضُ رغباتِها كلَّ يومٍ وهي تتوهَّمُ بالمستحيل...

إنَّها الحربُ: صاحَ الفراتُ برأسي، واحتلَّ أوَّلَ دمعةٍ حرَّرتْ بانفجارها خليَّةً حبلى بالسَّواد.

الحربُ: تقيَّأتْ دجلةُ بصمتٍ مهذَّب.

الحربُ: نزفتْ نخلةٌ إثرَ شظيَّةٍ عمياء.

الحربُ: دمدمَ الهواءُ نتيجةَعجوزٍ تقرأُ الفاتحة.

حربٌ: احتشدتِ النُّجومُ لترجمَ هذهِ الحروفَ الثَّلاثةَ لولا الدَّوران الذي رسمَ ألوانًا أخرى...

ألوانًا تهمسُ – هل مِن مَزيد – ؟؟!!

وكفعلٍ يتهجَّى التَّواصلَ: أُغتيلَ السَّلامُ قبلَ أنْ تتنفَّسَهُ أرواحُنا – نحن العراقيِّين – ومن ثَمَّ اغتيلَتْ أرواحُنا لنبقى عاطلين عن التَّوهُّج... ومن ثَمَّ... اغتيلَ لتبقى الحرِّيَّةُ يتيمةَ ألابوَين (دجلة والفرات).

على سلَّمٍ مُنكَسِر

تحت صمتِ السَّوادِ تنسفُني الحربُ

وكارثةُ الزَّمن – فتاةٌ تجثمُ إلى جانبي...!!

وصديقٌ يُشاكسُ عَينَيهِ بابتسامةٍ مُدلّلةٍ

وكأنِّي أُعاكسُ الفتاةَ... الكارثةَ.
الفتاةُ وصديقي
يبتعدان عن الذَّاكرةِ... يختفيانِ...
الذَّاكرةُ لعبةُ الموتِ
تُقاسمُني الطَّريقَ...!!
وأنا في الرُّوحِ
على سُلَّمٍ مُنكَسِرْ.
هناك النَّخيلُ... وهنا النَّخيلُ
هناك دجلة والفرات... وهنا دجلة والفرات
هناك أنا... وهنا... هنا أنا
هناك هنا... وهنا هناك...!
وتنسفُني الحربُ
وصديقي يُشاكسُ عَينَيهِ
بابتسامةٍ مُدلّلةْ...!!

المأذنة

هناك خطأٌ يُطاردُ هاتَين العَينَين الرَّافضتَين فنَّ الخوف...
عينان تشعَّان بصمتِ الصَّحراء, وتهرولان باتِّجاهاتٍ متعاكسة...
لكنَّك عندما تضعُ رأسَك في أيِّ زاويةٍ من هاتَين المرأتَين تتعثَّرُ بدموعك اللاَّتي يقذفنَ بك إلى مطرٍ من حنين... ربَّما، أو ربَّما إلى عاطلٍ عن التَّواصُل...!!
أظنُّ أنَّ هناك... وأنت تظنُّ طبعًا... وإلاَّ لماذا تتهجَّى لغتي...

وتشاركُني هذا الشِّتاءَ الأخرس.
في الطَّريق: كانت أنوثتُها يستحي منها النَّخيل

كانت أنوثتها تحلمُ بشموعها العصافير... كانت أنوثتُها غابةً عذراء...
كانت أنوثتُها مأذنةً للدُّعاء... في اللَّيل تهبطُ بتلك العَينَين إلى قامتي...
كي تطهِّرَني... تهبطُ مثل نورٍ باردٍ تدخلُ أنفاسي.
وتصلِّي... تصلِّي... تصلِّي.
عينان تشعَّان بصمت الصَّحراء...
وقلب مثل طفلٍ يتيم...!
إنَّها أمِّي... أمِّي.
وليس هناك في هذا الوجود مَن يمنعُني من أن أصرخ...
أصرخ، وأصيح... بعدما ارتحلَت...
هناك خطأ... خطأ
خطأٌ جسيم...

ضوءٌ غائِب

أحرثوا هواءَ العراق... ثمَّةَ لعنةٌ تُطاردُ بغدادَ... وأيُّ لعنة...؟!
أيُّ لعنةٍ تلك التي صداها يتجدَّدُ... ليأكلَ ما تبقَّى... وما سوف يتبقَّى...!
أحرثوا قلوبَكم، ربَّما تنتفضُ من هناك ثورةُ الرَّماد الأخير.
أحرثوا أرواحَكم... تلك المآذنُ التي يُمزِّقُ بعضُها البعضَ الآخَر.
أحرثوني أنا... أنا صوتُكم الذي لا ينام!!

صوتُكم الذي يركضُ معي... يركلُني كيفما يشاءُ ويحملُني مثلما يشاءُ – طفلاً –
يصرخُ في وجهي ويبكي معي...
نضحكُ سويَّةً من هذا الوطن!!
الوطنُ الصَّامتُ كناقوسٍ هَرِم...!!!
ثمَّةَ لعنةٌ تولدُ من أنفاسِنا... لعنةٌ قذفَتها عيونٌ عمياء...
عيونٌ أبوابُها أرامل... وطرقُها جثثٌ لعصافيرَ تحلم...!!
أنهارُها دمٌ ملوَّثٌ بالخردل... كذلك بسلسلةٍ من ألمٍ مُتكدِّس.
أيَّتُها السَّماءُ لا تفتحي نافذةً للشَّمس... فاللَّعنةُ ضوءٌ مُخيفٌ
تصعدُ... تنزلُ... تمشي...!
اللَّعنةُ شيئٌ غائبٌ مثل أنوثةٍ ترسمُ طريقًا لجهنَّمَ
يمتدُّ من رأسي إلى قدمَيّ...
قالتْ سمكةٌ حبلى بالدُّموع:
هذا المساءُ يبعثُ التُّرابُ قافلةً من الموتى ليحاكموا قدرَهم...!
قال بلبلٌ سرقتْ تغريدَهُ الطَّائراتُ:
– الطَّائراتُ تُدمدمُ بلغةٍ لا تفهمُني –
لغةٌ لا تفهمُني، ولن تفهمَني...
كاللَّعنة...!!

القزم

لا شيء – اللُّصوص – قالوا هكذا... سرقوا كفنَ الوطن وتركوا العيونَ تحترقُ
ثمَّ ناموا على سريرِ طفلٍ وحيدٍ بعدما ألقموهُ للتُّرابِ عاريًا بلا رأس.

ذات مرَّة قطعوا أُذنيَّ، واتَّهموني بالخيانةِ العظمى... مارسوا لذَّتهم أمامَ العالم {فهم أقزامٌ بأجسادٍ فَيلَة}... كذلك أظافرُهم التي تلعقُ الدَّمَ وتُسجِّلُ حرارةَ الصَّيفِ وبرودةَ الشِّتاءِ ونبضات القلوبِ التي تتبعــثرُ هنا وهناك. ومثلما زعموا: لا شيء أعلنَ – القزمُ الأكبر – صاحبُ الرَّأس المدوَّر والشِّفاه المتعاكسة:
أنَّ العالمَ نملةٌ وسيُحيلُها رمادًا بزفيرهِ المرّ... قالَها أمامَ {القطط وسلاحف النَّهر وفئران الحدائق المنزليَّة وبقايا قنافذ منقرِضَة}... ثمَّ حرَّكَ شاربَهُ ذو الشُّعَيرات المهاجرة للموت وشهقتْ عضلاتُهُ بزلزالِ الدَّمار وكان القرارُ الأخير... {ذلك الحلمُ الذي راودَ أباهُ – المجهول بالنِّسبةِ إلى الجميع – أو ربَّما الحلم الذي راودَ خنزيرةً أكلَها الرِّجالُ في اللَّيل، ثمَّ رحلتْ تاركةً خلفها القوم الكبير}.
فالسَّيِّدُ القزمُ لا ينامُ حتَّى يتيقَّنَ أنَّ خطوطَ أصابعه ثابتةٌ... وعلى الرَّغمَ من ذلك فهو مؤمنٌ أنَّ الرِّياحَ لا بدَّ أن تخترقَ أنفَهُ المسطَّحَ وتقذفَ بــ – هتلر – الرَّاقدِ هناك وترمي بهِ إلى الجحيم...
والــ – لا شيء – مسافرٌ دائمًا في رأسِ الأرضِ يقطفُ صراخَ اليتامى وأنينَ الأراملِ ويحملُهما بيدَيه ويزرعُهما في السَّماءِ... ولكن، بحذرٍ مُطلَقٍ. المهمّ {هو لا شيء}.
فهم قالوا وأثبتوا ذلك أمامَ جمعيَّة حقوق الإنسان وعلى طاولةِ الأمم المتَّحدة.
ولكن – اللاَّشيء – يقولُ:
من دون – لا – تنفدُ الكلماتُ والشَّيءُ كذلك.

ماراثون الصَّلع

إلى: عود ثقاب... والسَّواد فقط

ألسَّنواتُ شتاءٌ طويــلٌ لهُ نوافــذُ زججتُها من الصَّمت، فهو يُسَرِّحُ الرِّياحَ ويُجنِّدُ

عيونَ البحر.
من جديدٍ أتعبَني أصبعُ الخوف، ربَّما لأنَّ المطرَ أكثرُ احتراقًا من حبيبتي... لهذا سأصنعُ للمنفى ساحلاً ليمنحنَي طائرةً... أنا أكرهُ الطَّائراتِ، لكنَّ قامتي لا تنحَني للسُّرعة.
عشَّاقُ الورودِ يُطلقونَ النُّجومَ من محطَّاتِ ألسنتهم بلا جوازات، وأمَّا لينين فالوحيدُ الذي كذبَ على الثَّلج الذي إنهارَ أمامَ أوَّلِ عودِ ثقابٍ مبرمَجٍ...
لماذا فقدتْ جمالَها الخربُ في وجنتَي الفراتَينِ...!!؟
هذهِ النَّهارُ تكرِّرُ نزولَها لتحرقَ بكارةَ الأرضِ، إنَّها قضيَّةُ التُّرابِ، ولا تعني أحداً إلاَّ فصيلةَ القوارض...!
أمسِ ثملتِ الأثداءُ بدفوفِ الأكفِّ وهي ترقصُ للسَّوادِ... سوادِ عام ١٩٨٠ حينَ فتحتْ فروجَها المَدافعُ كي تلدَ أُنثى تلتهمُ النَّوارسَ وتبيضُ المهاجرينَ.
جميلةٌ أنتِ أيَّتُها السِّيجارةُ لحظةَ تقتلعينَ حصى الرِّئاتِ لتنامَ العواصفُ، لكنَّ ثيابَ أصدقائي تُطالبُ لُعابَ قلمي بالبصاقِ على القطبَين، ولا أعني سوى – الكراسي –.
هذهِ المرَّةُ أختلطَ رأسُ القطارِ بهذياناتِ ملوحتي الجنوبيَّةِ، بيدَ أنَّ العيونَ الزَّرقاءَ تستعيرُ وجهي، وترمي بهِ إلى الدَّاخل... ربَّما الخارج من القلب.

اليومَ تذكَّرتُ دجاجتي العانسِ وهي تفكِّرُ بالانتحار، وأنا أهديها سنبلةً كي تمتزجَ حروفُها بخريف صوتي... كذلك استقبلَني وجهُكَ أيُّها البردُ ببطاقةٍ خسرتْ لعبةَ التَّأمُّلِ وأُخرى تتواصلُ معي لعلَّها تخرجُ من الماراثون، ولا يُصيبُها الصَّلَعُ...، الصَّلَعُ لا يشترطُ البياضَ، ولا المساحات، بل يشترطُ مكانًا معيَّنًا يستلقي فيه. هذا ماعرفتُهُ عن شوارعِ البصرةِ والعمارةِ والنَّجفِ وذي قار والجنوب والشَّمال والوسط، وأيضًا عن – المُلهـــم – بعدَ أنْ هرَّبَ أنفَهُ إلى جهاتٍ تستعينُ بالفروجِ

(أعني فروجَ المَدافِعِ)، وهنا أعودُ إلى البقرةِ لتفهمَ جيِّدًا أنَّ حليبَها، حالما ينفدُ، تكونُ هي قابلةً للطَّيران.

أيُّها المعطفُ الطَّويل
لا نوافذَ للشَّمس
لا نوافذَ للنَّخيل
لا للموتى...
أيُّها المعطفُ الطَّويل
إمنَحْهم اللُّجوء
واشفَعْ لطقطقاتِ أسناننا
ودَعْ ألسنةَ المساجدِ ترفعُ الأراملَ
وتقودُ السَّوادَ إلى الجنَّة.

(٢٠٠١، في القطار القادم من استُكهُلْم إلى تريليبوري)

سيِّدٌ لكارثةٍ تُحدِق

تحتَ ذاكرةٍ مُتخَمَة بالرِّمال وعينَين تتسلَّقان جبلاً أخضرَ أحاطَ بي الشَّاعرُ العوكلي شاهرًا أمامَ توحُّدي مائدةً من جمر...

مائدةٌ من ذهب مثل صاحبي القادم من القيقب[١]، تلك القرية التي أسَّستْ لنفسها وطنًا من النِّسيان لتظلَّ تمطرُ من الشُّعراء الذين ستفتخرُ بهم أمَّتُهم ولو بعد حين... ولأنَّني مُتخَمٌ بالهزائم، حفرتُ لي خندقًا ما بين أناملي والذِّكريات حتى

أتوهَّجَ بنشيدِ صاحبي الذي يتمكَّنُ، ولا يصل... ليصلَ بذاكرةٍ لحوحَةٍ تهرولُ به نحو الشَّمس وتتربَّعُ على عرش طيوري... ولكن، هناكَ حلمٌ يخفقُ في القلب... هناك أمنياتٌ تعطَّلتْ ألوانُها عن الدَّوران... وهناك أملٌ أُلقيَ القبضُ عليه بتهمةِ الانفتاح... وهناك كارثة...

كارثةٌ تُحدقُ... وعالمٌ يغفو على لحنِ دم...!!

(وهل يُمكنُ – واللَّيلُ ضيِّقٌ كرِئَة) – [٢]

الممكنُ لا يعني الوصولَ إلى – س – بل الدُّخول إليها من نقطة الوعي الذي أدركَ الغايةَ لتحقيق الهدف باتِّجاه المُمكن الثَّابت والمتحرِّك حتَّى تبقى – س – تنتمي ولا تنتمي، وبذلك نحقِّقُ المزيدَ من الوقوف أمام التَّدفُّق الذي يعصفُ به (الإنترنِت) أو ما أُسمِّيه – بالعفريت الذَّكي –...

وتحت ذاكرةٍ مُتخَمَةٍ بالرِّمال يبقى الشَّاعرُ العوكلي فاتحًا ذراعَيه لامرأةٍ لا تصل...

(هل يمكن... أن يظلَّ القلبُ... فاتحاً ذراعيه لامرأة لا تصل ؟) [٣]

إنَّ امرأةَ الشَّاعر هي نسيجٌ من عطلٍ في المجتمع اللِّيبيِّ من خلال النَّظرة السَّائدة في ذلك المكان... لذلك أطاحَ الشَّاعرُ باللاَّممكن ليقدِّمَ الممكنَ كي يستفهمَ به، وبعمق، من خلال القلب – ذلك المارد الذي أحالَ الكائنَ البشريَّ دموعًا... – أحالَ أمَّةً تتابعُ موتَها الكسولَ وهي تراهنُ على قنافذَ تتراقصُ فوقَ الكراسي... قنافذُ تتحرَّكُ ببرامجَ صُنعَتْ بأيدٍ خشنة... أيد تضحكُ في النَّوم... ولا تضحكُ – طبعًا – أمام النُّور حتَّى لا تهتَرئ أسنانُها الملطَّخة بالدَّم...!

هناك قمرٌ هرم

وشمسٌ عجوز...

هناك أنهارٌ من الغثيان

وهناك طفلٌ – طفلٌ عربيّ – لا يقبلُ المساومةَ على الوصول ولو بعد حين...
ويبقى سالم العوكلي يُضيئُ – بقوَّةٍ مُرَّةٍ – عتمةَ الرَّأس من خلال السُّؤال المبَطَّن بالبياض وهو ينادي أمَّتَنا العربيَّة، ويصيح:
(فهل يُمكنَ أن ننامَ على ركبتكِ
يا أمَّتَنا المُتعبَة
متجاهلينَ أرتعاشَكِ
والسُّعالَ القادمَ من غرفةِ نومكِ...) [٤]
ربَّما يُمكنُ إذا ما نزلنا
إلى الممكن ببَصرٍ من حديد.

من مجموعة (مقعد لعاشقين)، دار الكتب الوطنيَّة، بنغازي، ليبيا – سالم العوكلي.

على الهامش
[١] القيقب: مسقط رأس الشَّاعر.
[٢] و[٣] و[٤] مقاطع من قصيدة – لا شيءَ بعد – للشَّاعر عَينه.

لغةٌ خلعَت اسمَها في خَبَر كان

أ

حتمًا إنَّ .. خَبَرَ كان يعرفُكَ جيِّدًا
والدُّخول كذلك...
حتمًا تشهقُ من الشَّوقِ إليكَ:

مَيسلون والفردوس
الميدان والحرِّيَّة
الرّصاهة والشُّهداء
الإذاعة... لا وزارة الدِّفاع...
فأنتَ نشوةٌ من حلمٍ ترقصُ فوقَ أروقةِ المكان
تنثرُ عطرَكَ العراقيّ... وتغرِّدُ كماء دجلة... وتحزن مثل الفرات...
تنهارُ أمام وجع الأرامل... تتوكَّأ على حروفكَ وتغصُّ بالكلمات...!!
كلُّنا كلماتٌ... لكنَّها سوداء... بعدما لوَّثَ بكارتَها الدُّخانُ... وحيضُ الحرب...
الحروبُ التي أحالتْ عشتارَ ظلامًا...
ظلامٌ عاطلٌ عن السُّكون...!!
أحالتْ نجومَنا بلا عيونٍ... والقمرَ العراقيَّ أميرًا يتيمًا...
الحروبُ التي زرعتْ بأرواحنا الظَّلام... وبأضلعنا إرثها المقيت.
حروبٌ تجوعُ... وقياصرةٌ تضخُّ لها الدَّم...!!
قياصرةٌ من حجر... أحلامُهم رمال... وطرقُهم مبلَّطةٌ بالذَّهب...!!
أمراءُ شواربُهم بلا ثمر... تتوزَّعُ فوق الوجوه بلغةٍ صمَّاء.
لغةٌ خلعتْ اسمَها وأحاطتْ بأبي نوَّاس والمتنبِّي وشارع الرَّشيد.
إنَّها لغةٌ ستشرقُ كلَّ الفصول...

(وما من نداءٍ وما من مجيب) (٣١)

ويبقى... خبر كان... والدّخول يعرفونكَ جيِّدًا
وكذلك نوارسي...
نوارسي اللَّواتي استفَقنَ على صوتِ كان، لا خبرها... استفَقنَ
وأنتَ تشاهدُ الرَّمادَ الملغَّمَ باللَّيل...

الملغَّمَ بالموت حتَّى الصَّباح...
الصَّباحُ سجائرُكَ الباقيات... سجائرُكَ التي تقولُ:

(ومرَّ علينا المماليكُ والإنجليز
سلاجقةٌ... بويهيُّون... برامِكَةٌ... وحنابل...
خوارجُ... أمويُّون...
كلٌّ تفنَّن في القتل والسَّحل والجلد) [٨٧]

ويبقى حفيفكَ يرسمُ كلَّ السِّنين... وتبقى أصابعُكَ خيمةً للنَّخيل
وأنتَ الحقيقةُ والحلم...
وأنتَ الذي لا يُجيدُ الثُّبوت... تشيدُ للتَّوازنِ
وتعزفُ لحنَ الوصولِ إلى نقطةٍ...
(نقطةٌ لا تُجيدُ التَّحرُّك
إلاَّ على الدَّوران...) [٧٦]
(ليس لنا
موعدٌ للرَّحيل... ولا للرُّجوع ولا للوصول
للموت ولا للحياة... هكذا نحن...) [٧٦]

نعم
هكذا نحن نرقصُ إلى حدِّ الثَّمالة
ونبني العراق...
نرقصُ إلى حدِّ الثَّمالة
لنخيطَ ثوبًا للقمر
وثوبًا لكلِّ البشر...

(يا وردة القلب... لاتستفيقي... دَعي الحلمَ ينمو...) [٨٨]
لماذا إذًا...؟
لماذا يريدون قتلَ القمر...؟؟
لأنِّي الوحيدُ الذي يلبسُ الطَّيرَ أغنيةً
ويفوزُ بامرأةٍ مدَّتْ جدائلَها إلى الشَّمس
كي يستريحَ النُّور...
بعدما أختنقَ التُّرابُ بالدَّم.
هكذا نحن – أيُّها العبيدي –
أمامنا – وبالتَّأكيد – غابةٌ من الوحوش...
لكنَّهُ النَّهر، يبقى هو السَّيِّدُ المستَمِرّ
وتبقى السَّماءُ
تشهدُ لبابلَ بالخلود...!!

ب

إنَّنا تلك المسافة الحبلى بالنَّشيج
والنَّشيج المستمرّ...
وتأريخُ ذاكرتي منحَ وطنَه فرصةَ الدُّخول والغوص
في التَّأمُّل، ولكن على حساب (الدُّخول في خبر كان)
الدُّخولُ هنا
لا يعني سوى الخروجِ من منطقةٍ سُلِّمَتْ الشَّاعرَ العبيدي مفاتيحُها بكلِّ خشوعٍ
وهو يتوحَّدُ فيها بكلِّ نوافذ الرُّوح وأنهار القلب...
(مَنْ يضمُّني حتَّى أنام...

مَنْ ذا يُعيدُ بدَمعه صفوَ الحياة
وبهجةَ الرمَّان في زَهو البساتين...) [٣٢]

وحيثما يوجدُ التَّوحُّدُ تنتشرُ جيوشُ الفراق
لتسوقَ بعصاها الزَّبدَ – وهل يذهبُ جُفاء...؟ –
(مَنْ ذا سيحملُني إليك
وقد نأتْ بيننا الدُّنيا...) [٣٢]
(اللَّيلُ يصرخُ في عيوني والشَّوارع والأزقَّة) [٣٤]

الصُّراخُ تقهقرُ الذَّات للوصولِ إلى الهدف، ولكن عن طريق الرُّؤيا الثَّابتة من خلال العيون، حتَّى تطمئنَّ النَّفسُ بعدما تسدّ الحاجة التي افتقدتْ مملكتها في اللَّحظة التي كانتْ هي تتجلَّى في الجسد عن طريق الحلم...!!
لكنَّ صراخَ اللَّيل لا يعني أنَّ هناك حاجةً أرادَ صاحبُها أن يشبعَ رغباتِهُ من رحيقها... بل هو إعلانٌ عن إنهيارٍ ثابتٍ ومستمرّ... وموجهًا
حرائقَهُ أمام عيون الشَّاعر
مجرجِرًا معهُ الشَّوارعَ والأزقَّةَ
حتَّى لا يبقى حَيِّزٌ يلوذُ به الشَّاعر
إلاَّ من هذا النَّزيف المُبَرمَج بأيدٍ خانتْ أظافرَها لتختزلَ العناكبَ، والخفافيشَ أيضًا...
ويبقى صراخُ اللَّيل
وتبقى أنوثةُ النَّهر
ويبقى البرتقالُ السَّابحُ مع القداح
وتبقى – عاشوراء – والغربةُ... ولونُ الذّل...
هناك... تشقَّقَ قلبُ الشَّاعر

إلى كتبٍ... جدارٍ... طريق
ليخلقَ لنا رغيفًا
أحاطَ بهِ كلّ الشُّهداءِ... ولكن:
(ما من نداءٍ ولا من مُجيب...!!)

على الهامش
(٣١ – ٨٧ – ٧٦ – ٣٢ – ٣٤) مقاطع من مجموعة الشَّاعر وديع العبيدي – الدُّخولُ في خَبَر كان – دار الأمين للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤.

قميصُ يوسف

هناك أصواتٌ انتهكتْ جداري وهي تمضغُ الحربَ بأثوابٍ وَسوَسَ لها الخيالُ المتَّزن – طبعًا – والحاصلُ على شهادةٍ من المقابر، وأخرى في انتهاك حقوقِ الإنسان من – الأمم المتَّحدة – ولاسيَّما بعدما رحلتِ الطُّيورُ من أهوار الجنوب في العراق تاركةً للمدافع جثثًا تشاهدُ الموتَ، وأخرى رفضتِ البقاء، لذا رحلتْ بلا وداعٍ يُذكَر...

وإنَّني – وقلمي النَّحيل – اتَّفقنا من دون حرَّاس، أن نصافحَ هذا الانتهاكَ من أجل – كلكامش – فَهُم أحفاده... وكذلك من أجل المُبدِع الجميل الذي لَملَم هذه الشَّظايا – أصوات الشُّعراء – وهو الصَّديق الشَّاعر وديع العبيدي في كتابه (أحفاد كلكامش) [١].

لقد تفجَّرتْ في رأسي العصافيرُ التي أحالتْ وجودي نجومًا توزِّعُ أنوارَها لتلتقطَ مـــن هـــذا الظَّلام الحالِك أنينًا يتهجَّى الدَّمارَ ويستنشقُ مجازرَ أدمنَ فاعلُها على

التَّواصل فوق راحتَي – تمثال الحرِّيَّة – ولأنَّني لا أحملُ تصريحًا كاملاً يخوِّلُ أصابعي الصُّراخَ، رسمتُ لقدمي قاربًا أتعبَني صنعُه حتَّى أعبرَ بهِ إلى كهوف الشُّعراء الذين لوَّثَ أمزجتَهم الدُّخانُ والغازاتُ السَّامَّة... وبعدما سقطَ حمورابي أمام مسلَّتهِ شاتمًا الحضاراتِ والزَّمنَ الذي يحتكرُ لنفسهِ هذه الحياة... واليومَ، وأنا على ساحلٍ مفتوح، هاجمَني – الكاكي – وهو يطلقُ بوجهي جنَّةَ روحهِ قائلاً:

(استيقظ الشَّعب الذي كان يقظًا
على قيامةٍ ملوَّنة
صوت – المنصور –
كان يأتي من بئرٍ – عبَّاسيَّة – جدًّا) [٢]

وحتَّى لا أغادرَ مكاني استمسَكتُ بشيخي – أبو العلاء المعرِّيّ – ليقودَني في هذه المتاهة الجميلة، وليكشفَ لي عن سرِّ هذه اليقظةِ النَّائمةِ تمامًا، والتي انتفضتْ لتعودَ إلى سباتِها من جديد، وعلى يدِ المنصور، منصورُ العراق الذي تربَّعَ على العرش عام ١٩٧٩، والذي أشعلَ قياماتٍ ملوَّنةً، لا قيامةً واحدةً يعرفُ الجميعُ مواويلَها، ولا رَيب... الذي ظهرَ للوجود ولا يعرفُهُ أحدٌ سوى البئر التي أخرجتهُ من سليل العبَّاسيِّين، وهم لغةٌ لا يفهمُها إلاَّ – إخوان الصَّفا وخلاَّن الوفا – لغةٌ أتاحتْ إلى كولُمبُس البزوغَ ثانيةً، ولكن على حساب تموُّز... الإلهِ تموُّز... الشَّامخِ كالرَّصاص...

(رصاصٌ في الحرب... في العرس... في المأتم
مناخُنا رصاصيّ... استوائيٌّ على مَدار السَّنة) [٣]

إنَّني أنذرُ روحي من أجل أن أعانقَ هذا المأتمَ الرَّصاصيّ... العرسَ الـرَّصاصيّ... الحـربَ... كي يفتـحَ المنـاخُ همهمةَ التُّرابِ أمامَ الأمَّهات...

الحاضنِ أكبادَهنَّ، المعدومات... الحاضنِ أكد... ولكش... وسومر... وكذلك – شوارسكـــوف – [٤] وهـــو يضحكُ والطَّائـــراتُ تضخُّ لهُ بابتساماتِها – البوشوية[٥] – الحالمة بأرض السَّواد... السَّوادِ الذي يطوفُ في القلوب... سارقًا عطرَ النَّخيلِ ثمَّ نطفةً ما زالَ رحيقُها في السَّماء!!

أيَّتها السَّماء

مَنْ سيصطادُ لنا سمكةً؟؟

وكلُّنا مشينا إلى الحرب...؟!!

إنَّني في طرقٍ لا تؤدِّي... وبي وجعٌ جالسٌ...

أجرُّ خطايَ إلى الدَّجلتَين... أتعثَّرُ بالهواءِ

المنتفخِ بالدَّم...!!

(حربٌ كثيفةٌ... تتوسَّدُ أيَّامي... تتوسَّدُني) [٦]

أنا غابةٌ من الرَّطب... سخَّرتُ الطَّوفانَ حتَّى أطهِّرَ الأرضَ... ليكونَ السَّلامُ قميصًا لأخوةِ يوسفَ... لِمَ إذًا...؟

لِمَ حملَتْني الرِّياحُ لتلقيَ بي على مسامير هيروشيما كي تعلنَ حرِّيَّتي كما تشتهي الصَّواريخُ وأسنانُ أمريكا...؟؟

إنَّها أنوثةُ الثَّلجِ... وهي تفتحُ ساقَيها أمام لينين وماركس بعدما أصابهما الغثيانُ المُشِعُّ من دهاليز – البيت الأبيض –

ولم لا... وصاحبي يقولُ:

(نحنُ صحراويُّون بلا رمل... وبحريُّون بلا ماء... لا نريدُ شيئًا... فقط...

نريدُ مزجَ الأوان... نريدُ أن... نتوازن) [٧]

التَّوازنُ لا يعني أنَّنا نشذِّبُ لحانا ونحلقُ الشَّاربَين... إنَّما أن نتشظَّى ونحدِّقَ جيِّدًا في أيِّ الاتِّجاهـــات علينا أن نقفَ بجسدٍ واحدٍ وعصا واحدةٍ يخرُّ أمامها السَّحرةُ

سجّدًا لله...
يا أحفادَ كلكامش:
(لا عاصمَ اليومَ من السُّقوط...
لا عاصمَ من الخسارات...
لا عاصمَ من الرِّمال
وهي ترقصُ في أفواه الشَّياطين) [٨]

على الهامش
[١] أحفاد جلجامش... راهنية الشِّعر العراقي، ١٩٨٠-٢٠٠٠، من منشورات ضفاف... إعداد وتقديم: وديع العبيدي.
[٢] خالد كاكي، شاعرٌ عراقيٌّ مُقيمٌ في مدريد.
[٣] مقطع من قصيدة – من مفكِّرة جلجامش – للشَّاعر خالد كاكي.
[٤] شوارسكوف: قائد عمليَّات "عاصفة الصَّحراء" في حرب الخليج.
[٥] البوشويَّة: نسبةً إلى الرَّئيس الأمريكي جورج بوش.
[٦] مقطع من قصيدة – حروب – للشَّاعرِ العراقيِّ عبَّاس اليوسفي.
[٧] مقطع من قصيدة – توازن – للشَّاعرِ العراقيِّ علي الإمارة.
[٨] مقطع من قصيدة – قهوة الأرض – للشَّاعر حسن رحيم الخرساني.

في مالمو السُّوَيد، قالَتْ لنا البَصرةُ

في ضجيج الكلمات
رأيتُ ملامحي تبحثُ عنِّي

رأيتُ قصيدةً جالسةً بمنفاها
رأيتُ طاولةً حبلى بالخجل، ومقاعدَ تجادلُ الفراغ...
وفي ضجيج الكلمات
رأيتُ القاعةَ بساقَينِ نحيفتَينِ، تنحني للجميع...!
لذلك قرَّرتُ أن أقفَ بجانبي
وأعتذرَ للمطر، فالشَّمسُ بين أصدقائي لها مذاقٌ
يُحيلُني طفلاً يرقصُ في النَّوم...
يحيلُني...
(حين كانتِ المدينةُ شيئًا
مجرَّدَ شيءٍ على عربات القطار) [١]

صرختِ الشَّاعرةُ – وفاء عبد الرَّزَّاق –
بينما كنتُ أنا مفكَّكًا بين قصائدها التي تتعثَّرُ في الظَّلام
والبصرة المتربِّعة في العينَين المالحتَين بالحبّ...
ولأنَّني لا أفرشُ أنفاسي على طريقة التَّصفيق، سحبتُ قلقي بهدوء
وتوقفتُ أمام هذا اللَّون الشِّعريِّ النَّاهضِ بالجمال على أنامل امرأةٍ
ألبسَتْ رحيلَها وتهشُّمَها أثوابَ النُّجوم...
لكنَّني ممزَّقٌ، والطَّريقُ إليها غريبٌ.... غريب
مثل شوارعها التي تلعبُ بانعكاساتِ غروبها
وهي تقول:
(كانتِ الحسناءُ
تستدعي بعضَ مقاطعها للصِّياغة) [٢]

وللصِّياغةِ سرٌّ يا – وفاء –

وبعضُ المقاطعِ بعضٌ من الصُّبحِ
وإلاَّ ستموتُ الأغنيةُ ويتلاشى ذلك الموتُ
السَّاجِدُ بين الدَّجلتَين...
وتبقى الحكاياتُ
على قاربٍ في – صوتٍ يكتمل –
(في الرَّمادِ تُغطَّى بما حاكَتْهُ أبرُ السِّنين
كلُّ الطُّفولةِ المُهاجرة...) [٣]

الرَّمادُ عصفورٌ أعمى فرَّ من الحرب
وفي ذكرياتي
نحتَ لهُ من الرَّصاصِ تأريخَ نخيلي...
(اليومَ جففتُ دمعَ الهواء
واحترقتُ...) [٤]

الحريقُ الذي أصطدمَتْ بهِ – وفاء –
ذلك الدَّمار الذي ابتلعَ حضارةَ الرَّشيد
ورمى بأبناء العراق وجاءَ باللَّيل...
أيُّها اللَّيلُ:
(كلَّما اتَّسَعَ الحزنُ...) [٥]
((يمرُّ العراقُ
فإليَّ بهِ، إليَّ... إليَّ
حانَ الوقتُ كي أكتمِل) [٦]

لكنَّها لم تكتملْ شاعرتُنا الجميلة – وفاء عبد الرَّزَّاق –
لأنَّ نصفَها الآخر في البَصرة

كان يردِّدُ معها – تحتَ قانون التَّوَحُّد –
لغةَ المنفى...

كتبتُ هذه المشاعر لمناسبة الحَفل الشِّعريِّ الذي أُقيمَ للشَّاعرة وفاء عبد الرَّزَّاق في مالمو، السُّويد، يوم الجمعة الواقع فيه السَّادسُ من تمُّوز عام ٢٠٠٧.

على الهامش
(١) و(٢) مقاطعُ من قصيدة "حكايات منغوليَّة" للشَّاعرة وفاء عبد الرَّزَّاق.
(٣) و(٤) و(٥) و(٦) مقاطعُ من قصيدة "صوت يكتمل" للشَّاعرة عَينها.

تحت رغبات حقائبي، هبطَتْ سَمَرقَندُ بقيثارتها

في خليج انتظاري حقائبُ تفرشُ سفرَها للفصول.
وتحت سريرِ شَعرِها المُبَلَّلِ تتهجَّى سنابلُ ذاكرتي رموزَ الدَّوائرِ حين تصطدمُ المجرَّاتُ بعضُها بالبعض الآخَر من حيثُ التَّوهُّجُ المستمرُّ بين مملكتي أنا، والغلافِ البارِّ بالأشياء، ذاك الذي يمنحُني ألقَ الانعكاساتِ وحرِّيَّةَ الانتقالِ في المعنى، كما أنَّهُ يُرافقُني بأمانةِ الصَّمتِ حينما أتوَكَّأُ عليهِ حالما يخذلُني الطَّريقُ في الوصول...
الوصولُ لا يعني أنَّني في الذَّات، أو العكس، بل الخروج من قبضةِ التَّوهُّم إلى منطقةِ التَّوهُّمِ المُضيء والمُعتِم معًا.
وبذلك تتحقَّقُ رغباتُ حقائبي في النَّهار... في النَّهار فقط.
لِمَ لا، وكلُّ شيءٍ قابــلٌ للتَّأويــل ما دامتْ طرقُنا ليسَ لها من نهايات، وما دمنا

نهرولُ بزوايا لا تتشكَّلُ أبدًا... ولن تتشكَّلَ أبدًا... المهمُّ كما تعوَّدتُ أن أتنزَّهَ باخضرار تمكُّني، هبطتْ على سفينتي و – بعيدًا عنهم[١] – الشَّاعرةُ سمرقند بأمواجٍ احتضنتْ تفكُّكي من دون هاتفٍ مسبَق...، احتضنتْ سمائي بقيثارةٍ بعدَها – طبعًا – سيغارُ جلجامش منا، حين تقولُ:

(إليكَ بقيثارتي...
سيغار جلجامش منا
فيتَّخذ لهُ حبيبةً
ضاربًا عن عشبة الخلود...) [٢]

وبما أنَّ الفريقَينِ سيتَّحدانِ في قلبِ قيثارةٍ واحدةٍ في النِّهاية، كان لا بدَّ لعشبةِ الخلودِ التَّوحُّد معهما قبلَ أنْ يقرِّرَ جلجامش العدولَ عنها واتِّخاذَ حبيبةٍ بثوبٍ جديد...

هكذا هي الشَّاعرةُ سمرقند عندما تحدِّقُ من وراء الظِّلِّ وأمامَ فحولةِ الشَّمس... تصرخُ، وبلا تردُّد، على الرَّغم من أنَّ للعيونِ أحكامَها في لغةِ الضَّاد.

وقبلَ هذا وذاك، تتساءلُ الشَّاعرةُ في أوَّلِ القصيدة – بعيدًا عنهم –:

(أتساءلُ
أيّهما أكثرُ حكمةً وجنونًا
تحليقُكَ في فضاءِ صمتكَ المتسَرِّبِ
أمْ سقوطُكَ المنتَظَرُ في مصيدة قلبي؟) [٣]

ثمَّ ترسمُ لسؤالِها سؤالاً آخَرَ:

(ماذا لو قصصْتُ أجنحتي
ودثَّرْتُكَ بحريرها
بماذا سأحلِّقُ إليكَ؟...) [٤]

وتعودُ للذَّات التي تجدُ اكتمالَها فيه لتمنحَهُ أنوثتَها بقيثارةٍ حملتْ كلَّ شيء...
(إليكَ بقيثارتي...)
ولم يتوقَّفِ النَّهرُ بل ظلَّتِ الشُّجَيراتُ تُردِّدُ صداهُ وتُغنِّي...
وظلَّتِ المسافاتُ تكتبُ أنينَ التَّلاطمِ حين يرفضُ الالتصاقَ والتَّنافر...
وظلَّتِ اللُّغةُ عاجزةً عن الانصهار في هذا التَّناغمِ الملَوَّن – بالكهرباء –
وبقيتُ أنا أتعلَّمُ فنَّ النَّحتِ كي أُنجزَ تمثالاً من عبيرِ الشَّاعرة... وحتَّى أطهِّرَ عَتمتي بضياء الحبّ، الحبِّ الذي لايهزمُهُ الجليدُ ولا براثنُ الوحشة...
(إدَّخرتُ لكَ حريقًا في دمي
أذيبُ بهِ جليدَ وحشتكَ...
.....
.....
سأعلِّمُكَ دروسًا في النَّحت
لتُنجزَ تمثالاً من عَبيري...) [٥]

العبيرُ الذي لا ينفد، بل يشتعلُ كلَّما مرَّ بهِ الزَّوالُ...
ولا زوالَ حينما ينثرُ المطرُ أنفاسَهُ على الأرضِ... الأرضِ التي تحلمُ وتسكرُ بحفيفِ خيالِ الغيثِ لترتديَ الرُّؤيا والحياةَ على سريرٍ من النُّور...
تقولُ سمرقند:
(وعدتُ شجري بمطركَ
فسكرتْ عناقيدي
إلتصقَ نداكَ بلحائي
فاخضرَّتِ الأرضُ...) [٦]

وقبلَ أنْ يفلتَ البعيدُ... القريبُ

يتضرَّعُ القلبُ بشعاعِ الدُّعاء
ويقولُ:
(أَللَّهمَّ عجِّلْ فرجَ هودجي
بعودتكَ لخبائي
أيُّها النَّائي كالصَّباحِ
عن مقلةِ ليلي المجنون...) [٧]

(من ديوان "بصمات قلب" للشَّاعرة سمرقند).

على الهامش
[١] – بعيدًا عنهم – قصيدةٌ من الدِّيوان المذكور أعلاه.
[٢] و[٣] و[٤] و[٥] و[٦] و[٧] مقاطعُ من القصيدة عَينِها.

١٩٩٤

١

اللَّيلُ جدالٌ مستمرّ
يصحبُني إلى وطنٍ غائب
إلى سماءٍ من دموع
إلى قلبٍ حالم
إلى طفولةٍ تطهرُ الخوفَ...

اللَّيلُ عيونُك التي تُقاسمُني وَحدتي
أو اضطراباتِ المسافات في سفري... (هنا عمَّان)
وصلتُ وأجنحةَ النَّوارسِ... ذكرياتُ الأمانِ... بطاقتي المنفردةِ...
– أنتم –
الرِّياحُ باردةٌ، أقسى من الموت...، أوَّلُ ما قبلني على أرصفةِ الأردنّ، صافحتُها كقدِّيسٍ مكابرٍ – هكذا دائمًا، لكنَّني مطرٌ – سجنتُ غربتي وانطلقتُ...!!
كانتِ الصُّخورُ كأنَّها جدائلُ نائمةٌ على الأرصفةِ، تتمطَّى كلَّما تبتعدُ،
لذلك تتحوَّلُ الحياةُ كهفًا منفتحًا...، إلَّا أنَّني بلا قبعةٍ أُشاهدُ نفسي بلا خجل – فأنا أنا – أحسدُني على ضياعي...!!
وقاربي الذي خسرَ البحار (أصدقائي)
كلُّ شيءٍ رائعٌ... هنا عالمٌ بلا قناع...، تجرجرُكَ الأصواتُ التي تتهامسُ بأنَّكَ دائمًا غريبٌ، وعليكَ أن تقفَ خلفَ ظلِّكَ المهشَّم لتبقى مثلما تُحدِّق...!!
ربَّما هو الهذيان...، الهذيانُ الذي شُذِّبَ من الغبارِ... طفلٌ صعدَ إلى السَّماءِ قبلَ أن يستيقظَ على قبلةٍ دافئةٍ...

(إربد – عمَّان – في الأوَّل من كانون الأوَّل ١٩٩٤)

٢

قبلَ كلِّ شيءٍ حاولتُ مصافحةَ ملك الموت. رفضَ مُتَّهمًا ذاكرتي باستفزازه... لِمَ وأنا الرَّجلُ الذي وضعَ أصابعَهُ على الطَّريق في زمنٍ لم ينبضْ إلَّا على أزيز الطَّائرات، وصراخِ الشَّوارع...، وفقدانِ التَّوازن...، واتِّحادِ الخوفِ مع الجسدِ الهَزيلِ... الجسدِ الذي لا أُسامحُهُ بعدما ارتعشَ تحتي مُعترفًا بالهزيمةِ وأنا في خضمِّ المعركةِ أُصارعُ المهزلةَ...!!

٣

يا لها من حقيقةٍ مُفجعَة...!!
لقد أخذَ البردُ دورَتَهُ راسمًا للعصافيرِ دربًا لا رجعةَ فيها، كي يبقى الجليدُ يحتفلُ بموتِ الذِّكريات.
وضدَّ إرادة المطر، نهضَ الشَّارعُ المُلتَحي باللَّيل ليقهرَ أصابعَ الغَيثِ... وأصابعي أيضًا.
إنَّها جاذبيَّةُ اللاَّوجود تقفزُ في سماءِ عيوننا وتسرقُ النُّجومَ...!!

٤

على سريرِ الخوفِ ثمَّةَ ضوءٌ ينكمش، وشاعرٌ يتمدَّدُ من الانكماش...!
السَّوادُ يتأرجحُ بين النّقطَتين، خيانة الرُّوحِ والهواء الفارّ...
هكذا يتنفَّسُ المكانُ مراياهُ!!

٥

تتفتَّحُ المسافاتُ في قلوبِ الغرباء... هناك تشتعلُ الذِّكرياتُ بين الرَّأس المعاصر والذَّاكرة الحبلى بالفناء...، فاللَّيلُ كافرٌ في عيونِ المسافرينَ، والنَّهارُ غزالٌ جريحٌ هجرَهُ القطيعُ تاركًا لهُ ثغاءَ طفلٍ غائب...!!
إنَّها لعنةُ المطر حين أحرقوا أهوارَهُ وذبحوا البردي ودفنوا الرُّؤوسَ...، رؤوسَ الحالمينَ بالوطن... الوطنُ آخرُ المجانينَ تركتُهُ هناك يفتِّشُ في أثداءِ الأرامل باحثًا عن التَّواصلِ في لغة شربتْ من الموتِ قرارًا بعيدًا...!!
لِمَ أكتبُ منفى العصافير ودجلةُ تتوحَّمُ بزقزقاتِ الملايينَ النَّازلينَ من رأسي إلى

قدمي...، المتساقطينَ في دمي...، المُشرقينَ في سماءٍ تحملُني على هذا العَويل...!!؟

٦

في سماءِ بغدادَ، كانتِ النُّجومُ تعرفُني تمامًا
والعصافيرُ كذلك...
لِمَ، إذًا، يرحلُ إنكيدوا... وتختفي عشتار...؟؟
يقينًا، هناك خمبابةٌ جديدةٌ... أو دماءٌ جديدةٌ في فمِ ثعبانٍ عقيمٍ...
أنَّني أُفتِّشُ عن العصافير في هذا العالم، وأحلمُ ببابل.

٧

وجودٌ غريبٌ حرَّكَ نشاطَهُ في دمي...، احتلَّ رأسي بقوَّةٍ ماردةٍ، أكلَ مساحاتِ توهُّجي الضَّاحك واضعًا عمقَهُ الأزليَّ في مياه أفكاري.
غريبٌ حقًّا أن أُحاصرَ قوايَ وأعزفُ بنظراتي جسدًا هلاميًّا...
عشرةُ أيَّامٍ والسَّماءُ تشتعلُ بأروقتي، تشعُّ بألوانٍ تتزحلقُ، ترقصُ أحيانًا...!!، ألوانٍ من الهواء والتُّراب معًا.

٨

في غاباتِ القلبِ تزدحمُ الظُّلماتُ والنُّورُ معًا فتختفي حقائقُ، وتولَدُ أخرى...، ومن الاختفاءِ والولادةِ تنبثقُ الرُّؤيا التي تتحوَّل بالضَّرورةِ نقيضَينِ يتَّجهانِ إلى التَّلاشي. (تلك هي الحياةُ كما أعتقد).

ولكن... هل نتوقَّفُ لنؤطِّرَ كينونَتنا في أحرفٍ تُحدِّدُنا انسجامًا مع ما نعتقد...؟
الحقيقةُ يبتلعُها الرَّفضُ طالما هناك التعبيرُ المتواصلُ الذي يسافرُ بكَ ليحملكَ إلى بوَّاباتٍ لم تُكتشَفْ بعد...!!
إذًا، عليكَ أن تفتحَ النَّوافذَ كلَّها لتفوزَ بالقمر...، من هنا ينطلقُ العالمُ إلى غايتهِ المجهولةِ بالنِّسبةِ إلى المكان...!

٩

أنا الهواءُ يترصَّدُني المرِّيخُ، تقصفُني الكلماتُ كي تُسجِّلَ على قميصي مسلَّةَ الشَّمس...!!
ولدتُ لحاجةٍ ترثُني للحرب، وأمام إنسانيَّتي قرَّرَ العاطلُ[١] عن النُّور أن يزرعَ المتاهةَ في جسدي ويتمَّ نعمتَهُ العمياءَ بالمَكارم...!!
فنادى:
أيُّها الحُفاة – إنَّكم لحظةُ توهُّمي – ..، بينما تتعلَّمُ الكلابُ لغةَ أطفالهِ المُحَنَّطينَ بالدَّم[٢].
إنقسمَ القطيعُ... هربتْ ابنتاه والزَّوجُ القاتلُ والمَقتول[٣]، فهناك أيدٍ، أيدٍ تنسجُ تأريخَها المُشعَّ بالشَّهيدينِ[٤]، وطاولةٌ من الصَّمت أكثرُ بياضًا من الموت...!!

على الهامش

[١] من أقوال صدَّام حسين الذي يدَّعي أنَّ العراقيِّين كانوا حُفاةً قبل الثَّورة.
[٢] كلاب عدي وقصي، ابنَي صدَّام.
[٣] عام ١٩٩٥ هرب حسين كامل وابنتا صدَّام إلى الأردنّ.
[٤] محمَّد باقر الصَّدر ومحمَّد صادق الصَّدر.

غبارُ طريق المنفى، ورؤيا عن عدنان الصَّائغ

حين يتأبَّطُكَ المنفى، تستيقظُ على أنفاسِ الوطن؛ لذلك، واجبٌ عليكَ أن تحترمَ الصَّمتَ لو دخلَ مدينتَكَ المهاجرة...، ومن هنا ينبغي على واحد مثلي الوقوفُ على قساوةِ الصَّائغ، وشفافيَّته، وهو ينحتُ من الهواءِ قلبًا يشترطُ لهُ عذوبةً ربَّما تجعلُكَ تستقرُّ على حروفها أو تنزلقُ من توهُّجِ ألوانها التي تُضطَرُّكَ أحيانًا إلى الصُّعودِ إليها كي تشتعلَ مع ألمٍ عراقيٍّ المَذاق، ورؤيا كربلائيَّةِ التُّربة.

ومن معرفتي بالشَّاعر الصَّديق عدنان الصَّائغ، أجزمُ أنَّ هذا العاصفَ بميدانهِ الثَّقافيِّ قدِ احترمَ الشَّوارعَ التي تؤدِّي إلى فضاءٍ يستعيرُ وجوهَنا، ثمَّ يشهدُ علينا أمام ذواتنا أنَّهُ قدِ اقتطفَ كثيرًا من أوجاعنا وحرَّكَ فينا أوجاعَهُ التي تزدادُ ثمارًا على سلَّمِ الذَّاكرة...، وعليهِ أيضًا، قرَّرتُ أن أحرثَ بعضًا من أوراقِهِ حتَّى وإنْ اختنقَ قلمي بغبارِ طريقهِ المكتَظِّ بالحروبِ والشَّوقِ إلى مقهى حسن عجمي وشارع المتنبِّي.

يقولُ الصَّائغ: [1]

(أعضُّ الكتبَ

أعضُّ الشَّوارعَ

هذا الفمُ لا بدَّ أن يلتهمَ شيئًا)

لا شكَّ في أنَّ الجوعَ "قوَّةٌ لا تعترفُ بالقِيَم"، كما يقولُ الرِّوائيُّ المصريُّ محمَّد عبد الحليم، إلاَّ أنَّنا، حين ننظرُ إلى صراخ جوع الشَّاعر، يتَّضحُ لنا أنَّهُ قِيَمٌ انتفخَتْ نتيجةَ ازدحام الرَّأس، وهو يرفضُ أنْ يسرِّبَ بعضَها من المكان إلى اللاَّمكان، لتحتلَّ غيرُها ذاكرةَ الشَّاعر..، لهذا علينا الاعترافُ لصديقنا الصَّائغ أنَّ جوعَهُ لم يكُن إلاَّ صرخةً ترفضُ الوقوفَ، وتحلمُ بالدُّخول والخروج حتَّى يهطلَ المطرُ.

كذلك يقول شاعرُنا الخاسر – عدنان – [2]

(في خنادق الحروب الخاسرة والزَّنازين
مَنْ يغطِّيني من البرد واللّهاث ولسعات العيون؟؟؟)

إنَّني أُقاسمُ ارتعاشَكَ أيُّها المقامرُ بما ملَكَتْ يداه...، وأحتمي بكَ لتحتميَ بي من عيونِ المنفى، وكلُّنا – يا صديقي – ربحنا الخساراتِ والبردَ والصَّمتَ الذي نافقَ أخيرًا علينا بأنَّنا أقلقنا أجفانَهُ، ونحن نرتِّلُ نشيدَ العراق...؛
وعلى الرَّغم من كلِّ شيءٍ، يبقى عدنان يغرِّدُ ويُقسمُ لنا قائلاً[٣]:
(من امرأةٍ إلى آخرى أمشي
قاطعًا حياتي سيرًا على الأحلام...)

يا لكَ من طيفٍ تجلَّى وحدَهُ، ونفخَ في أنامله لتحملَهُ ماشيًا في النَّهار وسائرًا في اللَّيل، حتَّى تبقى ويبقى الصَّائغُ على الرَّغم من – العقب الحديديَّة – طائرًا يلوِّحُ لنا أنَّهُ رافِدٌ من النَّهرَين ونورسٌ من أرض السَّواد...
في ٢٠٠١/١١/١٢

على الهامش
[١] و[٢] و[٣] مقاطعُ من مجموعة – تأبَّطَ منفًى – للشَّاعر العراقيِّ عدنان الصَّائغ.

بينما يتهجَّى علي ريسان المسافات
وُلِدَتْ مسرحيَّةُ أطفال الحرب

من بياض الموت يفرشُ أطفالُ الحرب مستقبلَهم أمامَ العالم...
النَّوارسُ تُذبَحُ، وعلى نخيل الحبّ

وبين دجلةَ والفرات قبرٌ يئنُّ
وعاصفةٌ حبلى بالمزيد...!!
من هنا نهضَ المُبدعُ علي ريسان ليعدَّ مسرحيَّةً قطفَ أنوارَها من:
١- نياشين التَّنك - لطفية الدّليمي.
٢- موت اليعاسيب - قاسم حميد فنجان.
٣- إشتعالُ الحكايا - علي ريسان.
٤- أطفالُ الحرب - سلام عبُّود.

فكان هو - علي - المخرجَ والممثِّلَ ومُعلنَ الكارثة التي حلَّتْ ببابل الحضارة، وما زالتْ تنهشُ بأبناء جلجامش، وتنفثُ سمومَها على مسلَّةِ حمّورابي التي أسَّسَتْ للعالمِ أناملَ الطَّريق باتِّجاه الشَّمس... بلْ أسَّستْ لهذهِ الكرة الأرضيَّةِ نجومًا تتوهَّجُ بالمعرفةِ والتَّوازنِ، الثَّابتِ والمتحرِّكِ معًا...
وكذلك وضعتْ للرُّؤيا قوانينَ تتهجَّى المسافاتِ وبَواطنَ الزَّمن...
(أنا أوَّلُ القصائد وآخرُ الحَكايا)
(لقد كان عندي قمرًا لا يعرفُ الأفول)

نهضتِ المسرحيَّةُ من رحم التَّأريخ حاملةً معها صوتَ أوروك، ومرايا الدَّمار القادم من - كولومبُس - فكانتِ الدَّلالاتُ اللُّغويَّةُ والدَّلالاتُ المجسّمة خيرَ دليلٍ على ما حلَّ بالعراق نتيجةَ الأيدي التي عملتْ وما زالتْ تعملُ للإطاحةِ بهذا الوطن الذي لا يختلفُ عليه اثنان من حيثُ الحضارةُ وحبُّ السَّلام.
وكذلك بذلَ الفنَّانُ - علي ريسان - جهدًا كبيرًا من أجل إيصال كلِّ الحقائق أمام الإنسانيَّة، وفتح الملابسات كافَّةً، وما يدورُ في العراق من خلال الصَّرخات والصُّور المجسّمة والموسيقى التي استمرَّتْ على أنينٍ منكسرٍ يرسمُ للمتَلَقِّي حجمَ الكارثة.

بالإضافةِ إلى ما حقَّقَتهُ لغةُ الجسد من دورٍ هامٍّ في تَجسيدِ المعاناة البشريَّة في ذلك العرض الرَّائع الذي قامَ بهِ الفنَّانُ علي ريسان.
وبطريقةٍ وبأخرى، كَشفَ لنا وللعالمِ براثنَ اللُّعبةِ التي أُسِّسَتْ لتدمير العراق وشعبِهُ النَّاهض بالتَّجدُّد...

أصابعُ ترسمُ مطرًا قادمًا

الغريبُ أنَّ السَّماءَ حائرةٌ مثلي بعدما وضعتُ أنفي خلسةً علَّ ورقتي الخاسرة – طبعًا – تفوزُ باللُّؤلؤ الحزين الذي هزَّ ذاكرتي بهِ شاعرٌ – سقطَ عَمدًا – أمام اللُّغة لينتفضَ من رأسها الحرب... وهي خرساءُ أمام نزيف الكارثة... فراح يهرولُ بالحروف المنتفخة بالألم ليعصرَ من أثدائـــها زمنًا شاهـــدَ – قيامة الأرامل – #
يقولُ الشَّاعرُ حسن النَّصَّار:
١{– عند نصف حائط... أرملة عذراء
تقطعُ من ثوب اللَّيل...
تخبِّئُ به دموعَها
وعلى جراحٍ منتفخَةٍ كثَديَيها... تتَّكِئ.}

وأنا أبحثُ عن النّصف الآخر من حائط – النَّصَّار – إنتهى بي الطَّريق إلى سؤالٍ يرفضُ أن يهربَ من شفتَيَّ متمنِّيًا لهُ أجابةً من صديقي الشَّاعر الذي قطعَ من ثوب اللَّيل خزانةً لتُخبئَ الأراملُ دموعَها العذراوات فيها...
وسؤالي هو: لِمَ اكتشف الشَّاعرُ أنَّنا غرباء... بل – غرباء جدًّا – مثلما يقول:

٢{ وأكتشفُ نحن غرباء
غرباء جدًّا
فلنواصِلِ الألم...}

الغريبُ في الأمر أنَّ عقليَّةَ الاكتشاف تحتاجُ معرفةً دقيقةً وبحثًا متواصلاً – أي أنَّها تحتاجُ مدَّةً زمنيَّةً كفيلةً بالوصول إلى النتائج المُراد اكتشافها... وصديقي – حسن النَّصَّار – أرادَ كما أعتقدُ أن يبيِّن لنا وجعَ الضّياع المستمرِّ الذي يمرُّ به العراقيُّون من خلال مفرَدَة الاكتشاف اللاَّحقيقيَّة التي استعملَها لإبراز حقيقةٍ ذاتيَّةٍ مؤلمة...
فاللُّغة الخاصَّة التي تترجمُها لنا أحاسيسُ الشَّاعر لغةٌ لا يفهمُها إلاَّ أصحابُ الشَّأن الذين رضعوا من أنهارها وسرَتْ في أوردتهم حتَّى أنفاسهم...
لذلك يلوكُها الشَّاعرُ بشيءٍ من الوجد إذ يقول:
٣{... يا لهذهِ اللُّغة الخاصَّة
مَن يفهمُها غير الطُّيور المهاجرة...}

ثمَّ يستمرُّ بالعذاب ليصرخَ:
٤{... ومَن يرثُ الألم؟}

إنَّها النَّارُ التي تحصدُ مشاعرَ الصِّغار قبلَ أجساد الكبار، والتي شيَّدَ خيوطَها قراصِنَة غلاظ تربَّعوا على روح الشَّاعر العَطشى، والتي تقول:
٥{... أقفُ أمام قراصنة غلاظ
في صحراء روحي...}

نعم، حقًّا إنَّهم لَغِلاظ، وإنَّ روحَكَ هي أنتَ... وأنتَ، أيُّها الصَّديقُ الذي أضاءَ بابَ الخسارات أوضحتَ لهم، ولنا جميعًا، أنَّكَ الأقوى، وأنَّكَ وطنٌ لا خوفَ فيهِ

بعدَما قذفتَ بالسَّواد وفتحتَ للشَّمس أصابعَكَ لترسمَ مطرًا قادمًا... مطرًا يحيا مع النَّار... وأيتامًا عُزَّلَ يقرأون مدنًا ترسمُها الفوَّهات.
وهذا ما حدثَ – فعلاً – ببغدادَ... والوطن...
وقلوبِ الأرامل...

على الهامش
قيامة الأرامل: مجموعةٌ شعريَّةٌ للشَّاعر حسن النَّصَّار – فازت بجائزة البيَّاتي عامَ ١٩٩٩، وصدرَت عن دار الكنوز الأدبيَّة.
{١– ٢– ٣– ٤– ٥–} مقاطعُ من قصيدة "قيامة الأرامل".

"في غياب البصرة"، للقاصّ محسن الرَّملي

سرعانَ ما يأخذُكَ الزَّمنُ المقتولُ إليه... أيدٍ ترسمُ لكَ نارًا أكلتْ أصابعَها الممتدَّةَ من الشَّمال إلى الجنوب... ترسمُ لكَ غربةَ الرُّوح على الرَّغم من الجسد المَدريديِّ الأبيض.
هناكَ تطاردُهُ البصرةُ لوجودِها فيه... لذوبانِها في أورقة الدَّم.
يقولُ الرَّمليّ:
– فتَّشتُ عنها في الشَّوارع والحانات ووجوه النَّاس والأخبار –

إنَّها البصرةُ حلمُهُ الغارق... ربَّما لأنَّها تمثِّلُ العراقَ أو لأنَّها تلكَ التي تسبحُ في فضاءٍ من الملح، وتحدِّقُ للبط العراقيِّ الذي يرقصُ للعروس السَّمراء الحافية القدمَين.
– لأنَّني بحاجةٍ إليها... لأنَّني لا أستطيعُ تخيُّلَ العالم بلا بصرة –

هكذا يصرخُ الرَّمليُّ ثانيةً ويغسلُ رأسَهُ بدموع السَّيَّاب وحروفه التي تعــزفُ الحنينَ... حنينَ القلب إلى القلب... حنينَ العيون إلى الجمال الطَّبيعي... حنينُ النَّبض إلى صداه، بلِ الحنينَ الأعظمَ إلى العراق.

– الشَّمسُ أجملُ في بلادي من سواها،
والظَّلامُ، حتَّى الظَّلامُ هناك أجمل
فهو يحتضنُ العراقَ –

ويبقى – محسن – يحملُنا على كفوفٍ ممزَّقة، ويرمي بنا إلى الدَّاخل باحثًا عن ميناء لرحيلهِ في دروب قرطبة – إنَّها في قرطبة – معهُ تلك الفتاةُ الحالمةُ على الخليج العربيِّ، تُسامرُهُ في اللَّيل، فيضمُّها إليه، وتختفي المسافاتُ، فتشتعلُ الرُّؤيا ليُجهشَ للبُكاء، ويدخلَ العينَين... الغائبتَين في النَّخيل ساعةَ السَّهر... ليجسِّدَ لنا ذلكَ التَّعبَ الذي يصارعُهُ وهو في قرطبة. إنَّهُ الرَّمليُّ الشَّاعرُ الأديب... القاصُّ القادمُ من أعماق العراق... صاحبُ القلم الذي حرَّكَ شيخوخةَ الزَّمن وهو يُصفِّرُ بجذوع النَّخيل لحنَ دجلةَ وزقزقاتِ الفرات، وهما عاريتانِ تحت الرَّصاص... تحت الموت الأمريكيِّ الجديد... لكن، هناكَ فتًى يقف... يحدِّق... يسجِّلُ لنا... يُغنِّي للنَّخيل... حاملاً معهُ ابنَ رُشد، والفراهيدي، وسندباد... حاملاً معهُ روحَ العراق على رمال أنفاسه الثَّائرة...

وأنا أكوِّرُ قلقي، ابتسمَتْ لغةُ السَّواد

إلى وديع العبيدي، من حسن رحيم الخرساني

وأنا في الطَّرف الآخر من الباب، تعوَّدَ رأسي أنْ يدخلَ قبلي إلى توهُّم اللُّغة، تاركًا لي فسحةً للتَّأمُّل من خلال القلب... وبما أنَّني أُراهنُ على الحالتَين، رجعتُ

إلى النَّافذةِ أُجَرجِرُ هذياناتِ المستقبل وطريقًا مرَّ عليه شبحي واضعًا زمنًا انتفخَتْ به الكلماتُ التي هي، ربَّما تزورُكَ في اللَّيل أو تلاحقُكَ تحتَ شمسٍ أظنُّ أنَّها عاطلةٌ عن الصُّراخ... وكما عوَّدتُ ذائقَتي أن أمزجَ لها مذاقَ الدَّاخلِ والخارج، وأن أخونَ وجودي أمامها وأكوِّرَ لها قلقي بسلَّةٍ من خيالٍ أتلمَّسُه بأنفاسٍ اختنقَتْ – ولستُ أشكُّ في ذلك – من أمزجةٍ دمويَّةٍ أكادُ أجزمُ أنَّها قادمةٌ نتيجةَ الفراغ الفاسد الذي لُوِّثَ بما ملكَتْ أقدامُنا وأسيجتُنا القديمةُ النَّازلةُ بنا حيثُما تُريد...

المهمُّ، اليومَ، تأخذُني لغةٌ أُخرى رفضَ صاحبُها إلاَّ تورُّطي معَهُ حتَّى نهايةِ المسافةِ الطَّويلة المشتركة بيننا... لغةٌ أرادَ مؤسِّسُها المُبدِع – العبيدي – أنْ يكشفَ تحتَ أجنحتها ألوانًا غابتْ مفاهيمُها بعدما اختلطَتْ أفواهُ الصَّيَّادينَ ممَّا جعلَ اللُّعبةَ التي رُسمَتْ في الظَّلام تلبسُ أعدادًا لا وجودَ لها إلاَّ في خارطةِ الصَّيَّادين... وعلى الرَّغم من هذا المحيط المُتلاطم، فقد نجا – وديع – صدفةً... لكنَّ الحقيقةَ تقولُ: ما زالَ قاربُهُ تلعبُ بهِ أمواجٌ ترفضُ أنْ تسجِّلَ بياناتِها في قائمةِ الأمم المتَّحدة خوفًا من التَّفكير في الرُّجوع... أو التَّكفير الذي يكونُ سببًا أكيدًا للموت ونتيجةً حتميَّةً لإرضاء الغاية... يقولُ العبيدي:

إبتَسِمْ
لأنَّكَ بموتكَ
تدعمُ النِّظامَ العالميَّ الجديد[١]

هناكَ ابتسامةٌ انطلقَتْ بلا مكان، ولم تُحدَّدِ العلاقةُ التي يُقيمُها العقلُ ليُفصِّلَ لها مفهومًا تُحلِّلُ من خلالهِ عمليَّةُ الانطلاق... ولِمَ...؟

والابتسامةُ نتيجةٌ منطقيَّةٌ للسُّخريةِ المُتَجَذِّرة في الميدان المعرفيِّ الرَّافضِ الحدَثَ...

أو هي اندهاشٌ كردٍّ فعلٍ غامض... أو هي زَبَدُ الحزنِ الماكثِ في الأعماق...
والشَّاعرُ أمرَ فاعِلاً مَجهولاً كي يقومَ بفعلِ الابتسامةِ من أجل النّظام العالميِّ الجديد؛
فمن وراء هذهِ الابتسامة يتحقَّقُ موتُ الفاعل الذي بموتهِ ينهضُ ذلكَ النّظام...!!
إنَّهُ القتلُ المتعمَّدُ مع سَبق الإصرار الذي يمارسُهُ النّظامُ العالميُّ عن طريق الدَّوران من الظِّلِّ إلى الظِّلّ، واضعًا نقطةً لا تُهشِّمُها حتَّى النيازك... وهي بقاء الذَّات القويَّة التي تمتلكُ كلَّ شيءٍ ولا تلتفتُ إلى رجلٍ إفريقيٍّ تهيكلَ من الجوع، والعقبُ الحديديَّةُ تظلُّ تُطاردُهُ حتَّى في النَّوم... والنَّومُ عشبُ الفقراء... المساحةُ التي تحتضنُ عظامَهم بلا ثمن... ولا رقيب؛
وبلا... تلكَ التي تشتعلُ في رئتَيَّ منذُ توحُّدي معي، وانشغالي بالعالمِ المُنحَني... والعالمِ المتكعِّبِ الجالسِ على ذلك الانحناء... الانحناءُ يجعلُني أتزحلقُ باتِّجاهاتٍ متعاكسة، وكيفما تتذوَّقُهُ الكهرباءُ التي تُشكِّلُني على هذا الانفجار... ويبقى صديقي – العبيدي – يبتسمُ بفعلِ الأمر، ويُعاتبُني على الدُّخول من وسط المُنتج وليس من باب القصيدة حينما يقولُ:

أيُّها الطِّفلُ
ابتَسِمْ
حينَ تُمطرُ قنابلَ
وكلُّ شيءٍ يصيرُ أسودَ.

هنا، قرَّرَ الشَّاعرُ أن يكونَ فعلُ الأمر نكرةً للمُتَلَقِّي ويقيناً معرفةً مقصودةً بذات الشَّاعر؛ ذلك لأنَّ – ال – التَّعريف، عندما تدخلُ على النَّكرة تصبحُ النَّكرةُ مُعَرَّفَةً، ولكن، يجب أنْ يتَّفقَ المُرسِل والمُرسَل إليهِ على ماهيَّة المُفرَدَة المُعَرَّفَة كي تتمَّ الاستجابةُ من قبل الفريق الثَّاني لتحقيق المُراد...

لقد نادى الشَّاعرُ طفلاً مُجبِرًا أيَّاه على الابتسامةِ – حين تُمطرُ قنابلَ... وكلُّ شيءٍ يصيرُ أسودَ –
إنَّ مُفرَدَة – قنابل – هي نكرةٌ، والنَّكرةُ تُفيدُ العموم... إذ إنَّ كلَّ شيءٍ في الحياة هو عمليَّةُ انفجار، ولكن، بأشكالٍ مختلفةٍ...
وإنَّ – قنابلَ – الشَّاعر، هنا، لها وجهٌ آخرُ للموت، بدليل أنَّ الأشياءَ يلوِّنُها السَّوادُ...السَّوادُ يلتقي مع الموت بميزان الفِعل من حيثُ سَلبُ جوهر التَّوهُّج وصولاً إلى فقدان الحركة مع فارق العودة في السَّواد... وأمَّا الموتُ فهو نهايةٌ راسخةٌ بحَسَب الظَّاهــر الرِّياضيِّ – الرِّياضيَّات – لا الميتافيزيقيِّ الذي لهُ فلاسفةٌ وآراءُ تستحقُّ التَّأمُّل.
أذًا، الشَّاعرُ يُنادي بياضَ الإنسانيَّة – الطُّفولةَ – ويأمرُها بالابتسام، ولكن، متى...
{حين تمطرُ
قنابلَ... وكلُّ شيءٍ يصيرُ أسودَ}

لِمَ – أيُّها العبيدي – تُريدُ أنْ تشاهدَ تلك الابتسامة، وهناكَ كارثة...؟
ربَّما أرادَ صديقي الشَّاعــر أن يُحقِّقَ فعلَ الحياة في أثناء فعل النِّهاية كي يستمرَّ البياضُ محافظًا على جمالهِ الذي ربَّما يُلوِّثُهُ الغدُ... وأيُّ غدٍ...!!؟
ونحن بلا زمنٍ يُقاتلُ معنا وحوشَ الأرضِ... الوحوشَ الذين قصفوا حدائقَ العبيدي، وجعلوا في رأسهِ مطرًا يصرخُ بهذهِ الكلمات... الكلماتُ حرائقُ حبلى بالوراء والأمام، غيرَ أنَّها لا تطيقُ – غالبًا – أنْ تحملَ ترابَ الشُّعراء...؛
ويبقى – وديع – قائلاً:
إبتَسِمْ
حين يوصَدُ كلُّ شيء

ولا يبقى طريقٌ للنَّجاة

إبتَسِمْ رغمَ ذلك.

هنا، تكرَّرَ فعلُ الابتسامةِ مرَّتَين، وكانت لهذا التّكرار غايةٌ واضحةٌ من خلال المفهوم الأوّل للجملةِ – حين يوصدُ كلُّ شيء – والمفهوم الثَّاني – ولا يبقى طريقٌ للنَّجاة –
إنَّ عمليَّةَ أن يوصدَ كلُّ شيء هي نهايةٌ ساكنةٌ...؛ وأمَّا لا يبقى طريقٌ للنَّجاة فسُكونٌ متحرّكٌ ينهلُ حركتَهُ من الفعل الآخر بعد أن تنتهي المحاولةُ بالفشل... ولذلك يتأخَّذُ الكائنُ فعلاً جديدًا ليتسلَّقَ بهِ كأملٍ يُعيدُ لهُ الحركةَ... وقد حقَّقَه الشَّاعرُ، وبذكاء، بقوله:
– إبتَسِمْ رغمَ ذلك –

إنَّ صديقي العبيدي، كلَّما يرجعُ إلى الدَّاخل، يجدُني هناك.. تمامًا كما أجدُهُ أنا أيضًا كلَّما أرجعُ إلى الدَّاخل... وربَّما يجدُنا غيرُنا أو نجدُ نحن الجميعَ... أو لا يجدُ أحدٌ أيَّ شيء... أيَّ شيء.
فَلْنَبتَسِمْ، إذًا، ونحقِّقَ رغبةَ الفِعل، وإنْ ألقمونا للتَّماسيح...!!

على الهامش

إبتَسِمْ... أحدى قصائد مجموعةِ – صدفة نجوت – جديدُ الشَّاعــر وديع العبيدي، الصَّادِرَةِ في النَّمسا عن دار نشر Bibliothek der provinz، بالألمانيَّة والعربيَّة، ٢٠٠٧.

كي تنتميَ إلى الرَّحيل... طَقطِقْ أصابعَك ولا تنتظرْ أحدًا

هناكَ أثوابٌ مجهولةٌ تركضُ في معلوم خيالي، وهذهِ الأثوابُ تُزهقُ أَرواحَها حقائقُ كلماتٍ مزيَّفةٍ يبتغي من وراءِها اصحابُها تحقيقَ المنفعة.

يقول الصَّائغ:

"أحلامي بالبحر

يأكلُها الصَّيَّادون

وأحلامي بالثَّورةِ

تصادرُها الأحزاب"

إنَّ مُفرَدَة – بحر – هي رمزٌ لفضاءٍ مجهولٍ يُحقِّقُ وجودَهُ من خلال الاكتشاف... وبما أنَّ الشَّاعرَ عرَّفَ هذهِ المُفرَدَة بدخول – أل – التَّعريف عليها، أصبحَ هذا الفضاء – البحر – مجهولاً ملموسًا بالنِّسبةِ لذات الشَّاعر... غامضًا بالنِّسبة إلى المتلقِّي. وهذا المجهول الملموس بين فَكَّي – صيَّادين – ربَّما يُعَرِّفُهم الشَّاعرُ من خلال دخول – أل – التَّعريف أيضًا. كذلك رسمَ الصَّائغُ نجومَهُ التي يتوهَّجُ بهنَّ واللاَّتي سقطنَ جميعهنَ فريسةً للصَّيَّادين والأحزاب... الأمرُ الذي أرغبُ أن أعرفَهُ هل إنَّ ذات الشَّاعر التي يُفترَضُ أن تسبحَ وحَدها في المسافات – تسبحُ بحريَّةٍ مُطلَقة – لا يُمكنُ أحدًا، مهما كانَ، أن يضعَ أصابعَهُ على أمزجتها... هل إنَّ هذهِ الذَّات الحبلى بالأحلام عاطلةٌ أمام المعارف – الحقائق – التي... تأكلُ... وتصادرُ... و....

تلك المعارفُ التي لا شكَّ في زوالها بعد أن تُأخَذُ منها المنفعةُ التي يُرادُ من خلالها سدُّ الحاجة الشَّخصيَّة, وهنا تقفُ ذائقتي الشِّعريَّة والمعرفيَّة أمامَ هذا الطَّرح المُنتج من أعلى قمَّةٍ تحملُها اللُّغة ويصوغهُا الوعي الشِّعريُّ الذي يجبُ أن يكونَ بمستوى لا يُحَدُّ إذا ما قارَنَّا تلكَ الذَّات الشِّعرية بالذَّوات الاعتياديَّة البشريَّة.

يقول عدنان:
"وأنا ما زلتُ
أطقطقُ أصابعي
وأيَّامي في انتظار
مَن تجلسُ جنبي
.....
بينما مفتِّشُ التَّذاكر
يُحدِّقُ في وجهي
ليرى تقاسيمَ النَّمط مقابل الغذاء...
وحدَهُ كزاز حنتوش بأيَّامهِ النَّاحلة... واكتفى حسن النواب بشرب بطل عرق مغشوش وحدَه، احتفاءً بغيابنا المُبكِر...

أقولُ أنا: حتى تنتمي للرَّحيل تَعلَّمْ لغةَ المطر، وخجلَ النُّجوم، ثمَّ سافِرْ إلى غيمةٍ تطيحُ بنفسها حتَّى تضعَكَ تحتَ جاذبيَّة الحبِّ والتَّواصل. من هنا... من هنا ركضَ الصَّائغُ في رحمِ زمنٍ أحاطَ بهِ مثل القطار الذي قرَّرَ أن يسرقَ من الشَّاعر ويُسرقَ لهُ، وهو بين حُجرهِ سريعًا مثل ذلكَ الغروب العابر من خلال هذا الرَّأس الذي لا يتوفَّق ولا يقف طبعًا...

أمامَ انهيار النَّخيل وزوال النُّور العراقيِّ الذي طبعَ توهُّجَهُ على كلِّ نافذةٍ في العالم... أقولُ: كي تنتمي للرَّحيل – طقطِقْ أصابعَكَ وأيَّامَكَ ثمَّ انتظِرْ... لعلَّ تلكَ الغيمة تُشاهدُكَ وتفتحُ لكَ سرَّها الدَّفين... ومن هنا أُريد أن أدخلَ من باب – مفتِّش التَّذاكر – الذي أقتفى أثرَ الصَّائغ وحدَّدَ أبعادَ الكارثة، كذلك مجيء كزار حنتوش الحالم ببرشلونه بينما يغزلهُ الخرابُ قصيدةً تنتظرُ أن تفتحَ فمهَا وتبصقَ هــذا الدَّمارَ أمامَ، وعلى رؤوس مَنْ مَنحوا أنفسَهم الحقَّ برفع شعار الحرِّيَّة لبلدٍ

علَّمَ العالمَ الطَّريقَ إلى الإنسانيَّة وبناء الحضارة؛ وكذلك أُريدُ ألاَّ أكتفيَ بعرق – حسن النواب – المغشوش الذي احتفلَ بالغياب في ذاكرة الشَّاعر، وإنَّما أُريدُ أن أتوحَّدَ مع عدنان الصَّائغ في قطارهِ الذي يُقلُّه إلى استوكهولم. أطلبُ منهُ أن يحاورَني – ويصبرَ عليَّ – ولا يمضيَ مثل الغروب سريعًا، ولا يتركَني في هذا النَّزيف وهو يحملُني بصوت – وحيدة خليل – أو بأسماء الأصدقاء الذين ذكرَهم الشَّاعرُ في قصيدتهِ، ربَّما ليوضحَ لنا ألمَ العراق من خلال تلك الأسماء التي وضعتْ القصيدة في طبق المقاله الصحفيَّة... فهو يقول:

أين أهلنا يا عبد الرَّزَّاق الرَّبيعي، يا ابن زريق البغدادي؟ يا فضل خلف جبر... يا... يا...

أقول لصديقي الشَّاعر – عدنان – ما الدَّاعي لذكر أكثر من عشرين اسمًا، وهناك في بلدنا – العراق – من الكوارث أكبر من هذهِ الأسماء، وهي تنتظرُ منكَ – الكوارثُ – أن تكونَ سفيرَها لتُبَيِّنَ للَّذين يضعونَ أصابعَهم في آذانهم، ويُقفلونَ عيونَهم بمفاتيحَ صنعوها خصِّيصًا لهم حتَّى لا يشعروا، أو تلينَ قلوبُهم لما يحدثُ في وطننا المغلوب على أمرهِ والذي دُنِّسَ ترابُهُ وعيثَ بشعبهِ حتَّى أطمأنَّتْ قلوبُهم وانفتحَتْ أساريرُ أروقتهم المُظلِمَة، وهم يفعلون الفواحشَ برجالات العراق والنِّساء في السُّجون وخلفَ الكواليس التي لا يعلمُها إلا الله والـــ ...

أقولُ: أُريدُ أن يصبرَ عليَّ – صديقي الصَّائغ – ولا يمضي مثلَ الغروب سريعًا... فأنا لا أتَّفقُ معكَ أيُّها الشاعر عندما تقول:

... ما الذي بقيَ من هذا الوطن بعدما أفرغوه من العشب و... قصائدهُ قاحلة بعد أن خمدَ الجميع في بيوتهم... شبابيكهُ صافنةٌ لا أثرَ فيها لصراخ... أزهارُهُ حاسرةٌ في المحلاَّت... وحيدًا، أعلِّقُ نهاري المبتلَّ على مسمار الحائط...

أقــولُ أنا لا أتَّفقُ معــكَ لأنَّ العشبَ العراقيَّ ثابــتٌ لا متحرِّك، وهو ليس قابلاً

للزَّوال، وذلكَ من خلال الأصالة الحقيقيَّة التي تتجسَّدُ في داخل المواطن العراقي... وأُكرِّر، المواطنُ الذي هو نتاجُ حضارة راسخة مبنيَّة على أُسس لا يُمكن أن تُهَدَّ إلا بزوال الإنسان نفسه... ولا أتَّفقُ معكَ بأنّ القصائدَ أصبحتْ قاحلةً، والشَّبابيكُ أصابَها الذُّهول، والأزهارُ حاسرة... فأنا أرى العكسَ تمامًا من خلال النِّتاج العراقيِّ المتواصل، والذي تصدحُ بهِ الأجيالُ، وأنتَ مُتابعٌ كما أعتقدُ للدَّاخل وللخارج... وأمَّا نوافذُنا فنابضةٌ بنا... نحنُ الذين نركضُ بها وتركضُ بنا... فالنَّوافذُ باقيةٌ من خلال الرُّؤية التي يُفجِّرُها كلُّ العراقيِّين الذين نذروا أنفسَهم للوطن.

ويبقى صديقي – عدنان – وحيدًا... يحتسي الشَّاي... جالسًا قدَّامَ حياةٍ تفكِّرُ... ربَّما هي حياتُهُ التي جفَّفَ لها الدُّموعَ والثِّيابَ، وعلَّقَ لها نهارَهُ على مسمار الحائط...

ولكن، هناك...!!

هناكَ الكثيرُ الذي يُحرِّكُ الصَّائغ، والذي لا يسمحُ لَهُ بالوَحدةِ والجلوس أمام المدفأة... فهناكَ الدَّمُ العراقيُّ والقلمُ الذي أشرقَتْ من خلالهِ الحقائقُ، وستبقى مُشرقَةً إلى الأبد...

صعاليك حسن عجمي أيضًا – قصيدةٌ للشَّاعر العراقيِّ عدنان الصَّائغ.

نازحون... ورقصةُ الشَّيطان، أو يتزنَّحُ مثل ملكٍ مَخلوع

في سماءِ نجومُها دمٌ يتخثَّر... وعلى جانبَيها أفاعٍ خرساءُ تقضمُ رؤوسَ الموتى، ثمَّ تتسلَّقُ أحلامَ النَّازحين؛

تنتفضُ نخلةٌ من بعيد بجذوعها الجنوبيَّة لتسجِّلَ لنا رقصةَ الشَّيطان وهو يرفسُ بقدمَيه بقايا تُحتَضَر...
ها هو الشَّاعرُ – كيطان – يحلبُ من صخور الملايين مرايا تتكسَّرُ تحت جلودٍ تتيبَّسُ ليرسمَ لنا بقلب دجلةَ حزنَ الفراتَين على شوارع العراق...
يقولُ عبد الخالق:
{حافلاتٌ تختطفُ شبابَنا ونقول... من جديد ارتفعَتْ أسعارُ السَّجائر}

هنا تخونُ الوسيلةُ الغايةَ الحقيقيَّة للإنسان العــراقيِّ بصرخة الشَّاعر، إذ يحلمُ كلُّ شخصٍ أن يحقِّقَ المُرادَ أمام حركة الزَّمن؛
وهذا الحلمُ يورقُ في دائرةٍ محدَّدة كما أعتقد؛ ويتبلورُ في ربيع العمر...
وإذا ما تلاشَتْ هذه الفترةُ أو اختطفتْها رقصةُ الشَّيطان، سوف تبزغُ سخريةٌ واضحةٌ تخبزُها الأصواتُ حين تفجِّرُ حروفَها بأحداثٍ تعاكسُ الغايةَ كي تتسلَّى بالوقوف خارجَ لعبة الموت...
{كلُّ شيءٍ آخذ بالرَّحيل... أو يتربَّع مثل ملك مَخلوع}

هنا يُقطرُ لنا – عبد الخالق – حقيقتَين ليصنعَ لنا مطرًا أسودَ يهطلُ من لبنٍ فاقعٍ كان يُسرُّ النَّاظرين...
وهذا يعني أنَّ الشَّاعرَ خرجَ من بين أرواحنا ثائرًا، وأعلنَ حقيقتَنا التي ننامُ أمامها، ونحن سكارى ليجسِّدَها لنا، وللعالم، بأنَّ هذا البلد – وأعني به العراق – ربَّما يستيقظُ ذات يومٍ ليجدَ الشَّوارعَ بلا أقدام إلاَّ من صدى جثثٍ تهرولُ في كهوف المدينة...
{أين أضع هذا الألم؟
قسَّمتُهُ بين أصدقائي
وما زال يتدفَّقُ مثل دمٍ آخذٍ بالنّحول؛

مركبتي تشيخ
لا صداقات بعد الآن...}

ثمَّ يستمرُّ النُّزولُ ما دامَ النُّحولُ تمكَّنَ من الجبل وجَرجَرَ وقوفَهُ إليه، وراحَ يوزِّعُ أبواقَهُ على النَّوافذ لتنتفيَ الصَّداقات وأواصر الحبّ، ليبقى أمام الجميع سيِّدًا تشيخُ قدَّامَهُ المعرفةُ...
وكذلك كي يمرِّرَ أصابعَ الألم لتتدفَّقَ في أرواحِنا، ولا تكتفي بل تمتدّ إلى خيالاتٍ أبعد...

نازحون: مجموعةٌ شعريَّة – عبد الخالق كيطان – حائزة على جائزة البيَّاتي – القصيدةُ الأولى من المجموعة.

وهي تنهضُ بـ (تفَّاحة القلب) [1]

فتحتُ للجاذبيَّة قانونًا آخَرَ

وأنا أتهجَّى رغباتِ النَّهار، ارتطمَتْ بخيول تأمُّلي أجنحةٌ لفراشات أسَّسَتْ لتناغمها أمواجًا من أعماقِها المزدحمَةِ بالألوانِ التي لا تفرشُ جمالَها إلاَّ على كفوفِ الهواءِ وأنفاسِ الشَّمسِ، وكذلك خيولي التي تحتضنُ أسرارَ النُّورِ وانعكاساتِ النَّومِ بين يقظةِ القصيدةِ وقراراتِ النُّزولِ إلى السَّاحل...
ولأنَّ تلك الأمواج تفجَّرتْ من – تفَّاحة القلب – ركضتُ من رأسي كي أفتحَ للجاذبيَّةِ قانونًا آخَرَ وهو الصُّعودُ المعاكسُ للوصولِ إلى البدايةِ والهبوطُ ثانيةً كي أكونَ أكثرَ توهُّجًا مع النُّور السَّاطع من هذهِ التَّفَّاحةِ القلبيَّةِ المعنى.

تقولُ الشَّاعرةُ – إياء إسماعيل –:
(مزدهرةٌ بدماري الشَّهيِّ
أحطُّ على النَّار
بسفائني المترنِّحة!...) [٢]

إنَّها لعبةُ المُبدعين من حيثُ الارتقاءُ بهذا الجمال الكونيِّ والتَّوحُّدُ بدمارهم مع قدَّاسِ النَّار بنشوة تزدهرُ من ربيعِ الغيابِ الواعي لدى الشَّاعرة بكلِّ أنوثتها البيضاء التي ترتِّلُ للزَّمنِ مُناديَةً بحفيفِ الدُّخولِ حينَ تندمجُ الرُّوحُ بالأشياء:
(آنَ لرمادي المُثقل بالغربة
أنْ يسقسقَ باخضرارهِ الزَّاهي...
آنَ لحرائقي الصَّغيرة
أنْ تفجِّرَ شموسَنا المقدَّسة
آنَ للضَّوء في أعماقنا
أنْ يُدخلَنا دهشةَ البياض
النَّاصع
كالحنين
والارتعاشْ...!) [٣]

وتظلُّ الفراشاتُ بأجنحتها تتنقَّلُ بأصواتٍ لها مذاقاتٌ لا يفهمُها إلاَّ عشَّاق الغَيث النَّازلِ على شفاهِ الوردِ والمشاكس بقليلٍ من القلق أنهارَ الحبّ...
الحبُّ الذي يقودُ المسافاتِ من الذَّاكرةِ إلى القلب، ومن القلبِ إلى المسافات:
(أقودُ سفينةَ قلقي
لتعبرَ محيطكَ البعيدَ
الواسعَ

المترامي الرَّغبات) [٤]

لكنَّ الغربةَ لها يدٌ كما إنَّ للموتِ صرخةً وللسُّكونِ خطواتٍ ترسمُ سماءَ المعنى حين تقولُ إياء:

(مغاراتُ جسدي ظامئةٌ
والثَّلجُ يجرحُ أنوثتي
بحرارةِ الغربةِ والموت) [٥]

الموتُ الذي يضيءُ لغزَ التُّرابِ بعدما يدخلُ أعماقَ اللَّيلِ وينتميَ إليهِ، وبلا كلماتٍ تتحقَّقُ النَّتائجُ وتلتقي الذَّواتُ المتنافرةُ والمتجاذبةُ في آنٍ معًا...
وتبقى الشَّاعرةُ – إياء إسماعيل – تنهلُ من اكتمالها البعيد القريب الظَّاهرَ المختفي الهلاميّ المجسَّم حتَّى تُحقِّقَ وجودَها الحالمَ في منطقةٍ عاطلةٍ عن احتوائِها والتَّناغمِ معها تحت نشيدِ طفولةِ الأغنيةِ التي ترحلُ بها:

(يا أنتَ
أمواجُكَ نسغُ دمي
تُرابُكَ عجينةُ تعبي
وأحلامي البيضاء...
.....
.....
أغمر روحي
باليقظةِ
والارتعاشةِ
والنَّوم!!...) [٦]

أيَّتُها التّفَّاحةُ القلبيَّةُ المَذاق... هكذا أنا، أتهجَّى رغباتِ النَّهار، وأفتحُ للجاذبيَّةِ أثوابًا لتتراقصَ عليها، وبصَمتْ...
أيُّها الصَّمتُ... هناكَ، على بابِكَ، نورسٌ من دعاء القمر، يجرجِرُكَ إلى هناك... وإلى هنا...!
أيُّها الصَّمتُ وحدَهُ الفراغُ فازَ بالشَّجرةِ التي انبثقَتْ في دمكَ...
(أيُّها العميق... البعيد
كحبَّة القلب
كتفَّاحة الشَّمس
في الجسد البَهيِّ...
.....
.....
أنا الشَّجرةُ التي انبثقَتْ
في دمكَ
ونمَتْ أغصانُها الغريبةُ
في الفراغ
.....
.....) [٧]

وتحت رغبةِ الضَّوء، ثمَّةَ قاربٌ جاءَ من كهوف البحر، حاملاً معهُ قبسًا يرفضُ التَّوازنَ ليتوهَّجَ بين بُعدَينِ لا يفصلُهما سوى هذا الأنين...
(أيُّها البعيد...
كم أتأمَّلُ أعماقي،
لأجدَكَ صاخبًا،

صاخبًا
تحت رغبةِ الضَّوءِ
الحارقة؟!!!...) [٨]

على الهامش
[١] تفَّاحةُ القلب – قصيدةٌ للشَّاعرة إياء إسماعيل من ديوانها (خيولُ الضَّوء والغربة).
[٢] و[٣] و[٤] و[٥] و[٦] و[٧] و[٨] مقاطعُ من قصيدة "تفَّاحة القلب".

المحتوَيات

مسلَّة الشَّمس..... ٥
واقفًا بلا ظلّ..... ٧
حتَّى نبقى عاطلين عن التَّوهُّج..... ٩
على سلَّمٍ مُنكَسِر..... ٩
المأذنة..... ١٠
ضوءٌ غائب..... ١١
القزم..... ١٢
ماراثون الصَّلع..... ١٣
نشيدٌ لكارثة تُحدق..... ١٥
لغةٌ خلعت اسمَها في خَبَر كان..... ١٧
قميصُ يوسف..... ٢٢
قالت لنا البَصرَة..... ٢٥
تحت رغبات حقائبي..... ٢٨
١٩٩٤..... ٣١
غبارُ طريق المنفى..... ٣٦
بينما يتهجَّى المسافات..... ٣٧
أصابعُ ترسمُ مطرًا قادمًا..... ٣٩
في غياب البَصرَة..... ٤١
وأنا أكوِّرُ قلقي..... ٤٢

كي تنتمي إلى الرَّحيل..... ٤٧
نازحون... ورقصة الشَّيطان..... ٥٠
وهي تنهضُ بـــ (تفَّاحة القلب)..... ٥٢

الثقافة بالمَجَّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par
Free of charge literary series established and directed since 1991 by
Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por
Naji Naaman

TAHTA RAGHABATI HAQA'IBI
SOUS LES DÉSIRS DE MES VALISES
UNDER MY SUITECASES' WISHES
تحت رغبات حقائبي

Février 2008
ألحقوقُ مَحفوظة © ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados***
Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org